عَدْل المسَامِير

خيري شلبي

حلمي التوني 2004

دار الشروق

عــــدَنْ المسَامِيـــــر

الطبعة الأولـــى ٢٠٠٥
الطبعة الثانيـــة ٢٠١٠

رقم الإيداع ١٤٤٢٤/ ٢٠٠٤
ISBN 977-09-1111-9

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

خيـــرى شلبـــى

عــدْل المسَامِيــــر

دار الشروقـــ

الشأفــة

على البوابة الخارجية الواسعة المسيَّجة بشبكة من الحديد التخين، اعترضنى فريق كامل من الحرس فى ثياب مدنية. من شباك السيارة قدمت لهم بطاقة الدعوة المختومة بخاتم تفحصوه جيدا وتأكدوا أننى لم أقم بتزوير هذه البطاقة. انحنى أحدهم على شباك سيارتى وطالبنى ببطاقة تثبت هويتى. بقليل من الزهو قدمت له بطاقتى الصحفية حيث إننى مدعو إلى هذا اللقاء باعتبارى كاتبا صحفيا. لكنه رفض الاعتراف بها. وكنت قد تعمدت أن ألفت نظره إلى محفظة نقودى بمدرجها الجلدى المزدان بعديد من الكارنيهات: كارنيه نقابة الصحفيين، اتحاد الكتاب، كارنيه النقابة السينمائية شعبة السيناريو، كارنيه ممغنط لدخول مبنى الإذاعة والتليفزيون.. إلا أنه رفض كل هذه الكارنيهات وأصر على البطاقة العائلية أو جواز السفر. وكنت مزودا بهما معا ولكن فى حافظة الأوراق التى وضعتها فى الخزنة الخلفية للسيارة. قلت له هذا، فقال: إذن فأرنى رخصة القيادة. قلت على سبيل المداعبة: تعترف برخصة القيادة ولا تعترف بالبطاقة الصحفية، وبطاقة اتحاد الكتاب؟! قال بخشونة لا مبرر لها:

ـ «أريد دليلا صادرا عن وزارة الداخلية!»

أعطيته رخصة القيادة، فتمعن فيها جيدا ونقل البصر بين وجهى والصورة الملصقة عليها، ثم أعادها لى قائلا: تفضل.

زحفت السيارة قليلا، اجتازت البوابة فى اللحظة التى كنت قد شعرت فيها بشىء من الانسحاق لازدراء الشرطى لبطاقتى الصحفية وبطاقة اتحاد الكتاب. وكنت على يقين من أننى صائر إلى فقدان شخصيتى نفسها بعد قليل، فداهمنى الإحباط؛ فالتمست العزاء لنفسى بأن هذا الذى جرى لى يشمل الجميع، وأن هناك من هم من المفترض أن شخصياتهم قوية ومرموقة فى المجتمع يرحبون بفقدانها عن طيب خاطر وأريحية بل إنهم يتطوعون بنفيها بادئ ذى بدء وإلقائها خلف ظهورهم على عتبة هذه البوابة. راودتنى الرغبة فى الاستدارة والخروج لعلنى أسترد قليلا من الهواء النقى الذى بدأت أفتقده حيث شعرت بأن صدرى صار أضيق من ثقب الإبرة. إلا أن الخروج كان مستحيلا؛ فوجدتنى أستجيب لإشارة أحدهم بأن أقترب بالسيارة من هذه المجموعة الواقفة تتحلق جهازا غامضا متمددا على الأرض. أمرونى بأن أزحف بالسيارة فوقه ثم أنزل منها. كدت أنكفئ على بوزى وأنا أنسلت من بين عجلة القيادة والكرسى لأتجه نحو من أشار لى بالاقتراب. الجهامة على وجهه تكاد تقنعنى بأننى مجرد حشرة يمكن سحقها بالحذاء ويمكن تسويتها بالأرض. راح يفتشنى، يتحسس جيوبى، وتحت إبطى، وبين ساقى المرتعشتين. خاطر مسكين مرهق يطل فى حذر شديد من تحت طيات الظلام المتراكم فوق رأسى يقول لى بهمس وبحروف متآكلة: أنت لم تطلب هذا اللقاء ولم تسع إليه مطلقا بل طُلبت له فما المبرر لكل هذا؟! إلا أن هذا الخاطر كان كشعلة عود الثقاب تحت ريح عاصفة سرعان ما انطفأ مخلفا رائحة خانقة؛ وصفرت

الريح فى أذنى قائلة : يكفيك شرف اللقاء كما أنك لست أقيم من كل هؤلاء الذين تنط السعادة من وجوههم .

أمرونى بركوب السيارة والاتجاه بها إلى المركن . الفرحة بوجود مساحة للركن بسهولة كانت أكبر من فرحتى باجتياز المضيق الخانق ؛ ذلك أننا لم نعد نفرح بشىء جديد يضاف إلينا ؛ ليس فحسب لأنه لم يعد ثمة من جديد على الإطلاق ؛ وإنما لأن الفرحة بالخروج من مأزق أو من ضائقة أصبح أملا من الآمال الصعبة يتمناها المرء طول حياته حتى وإن كان الخروج من مضيق يعنى الدخول فى مضيق تال .

بعد أن مضيت بضع خطوات توجست من لص مجهول يفتح خزنة السيارة ويسرق حافظة الأوراق الجلدية متوهما أنها تحوى نقودا ؛ ثم تذكرت أننى يجب أن أعتاد عدم السير فى الشارع أو التوجه إلى أى مكان إلا وبطاقة الهوية مشرعة فى يدى . وغضبت من نفسى لأنى أصبحت أستثقل حمل أى حقيبة حتى لوكانت مجرد حافظة لا تتسع إلا لنوتة وقلم وبطاقة وجواز سفر ومقالة تحفظها من العرق ريثما أسلمها للجريدة التى أعمل بها . تأبطتها شاعرا لأول مرة أنها بلا ثقل على الإطلاق ، بل وشعرت ـ ربما لأول مرة أيضا ـ أنها يمكن أن تكون أنيقة وأن حملها ضرورى كالثوب الذى أرتديه سواء بسواء .

قرب باب القاعة التى سيتم فيها اللقاء المأمول المرتقب استوقفنى رجال بملابس مدنية تشبه ملابسى بالضبط ؛ أعادوا النظر والتدقيق فى بطاقة الدعوة ؛ ثم أعادو أعادوا تفتيشى بشكل أسرع ؛ ثم أطلقوا سراحى ، فمضيت كالفرخ الدائخ . على الباب واجهنى مستطيل من الخشب بأربعة قوائم ، وعلى مقربة منه جهاز كبير غامض رابض كالمصيبة المتوقعة ؛ يتحلقه

بضعة رجال أشداء؛ طالبونى بتسليمهم سلسلة المفاتيح والساعة والخاتم الفضى. فعلت ذلك مجتهدا قدر الطاقة ألا تظهر على وجهى شبهة التذمر أوالامتعاض. طالبونى كذلك بالبطاقة، أية بطاقة تثبت أننى الشخص المدعو للقاء. فى هذه المرة شعرت بقليل من اللذة فى التحدى بإبراز بطاقتى الصحفية والادعاء بأننى لا أحمل سواها لعلهم يحققون رغبتى الخفية ويمنعوننى من الدخول؛ لكنهم تفحصوها وأفرجوا عنها وعنى بابتسامة شاحبة. لحق بى صوت أحدهم مستدركا:

ـ «الشنطة لو سمحت!»

سلمته حافظة الورق ووقفت. فتحها، مرر يده فى كل ثنية من ثناياها؛ ثم توقف عند القلم المشبوك فى أنشوطة جلدية مخصصة له. صار ينقل نظراته بينى وبين القلم فى استرابة واضحة مخيفة ولسان حاله يقول: «وقعت فى يدى أيها المجرم العتيد». فسقط قلبى على الأرض وتهشم مثل كوب زجاجى. تسمرت فى وقفتى حتى لا أدوس على شظية من شظاياه المتناثرة على الأرض. بحذر وارتعاش مد أطراف أصابعه وشد القلم من أنشوطته، صار يقلبه بإمعان وقد شحب وجهه وارتبك لدرجة أن زملاءه استرابوا فى الأمر فصاروا ينظرون فى القلم بفضول واستثارة. ضحكت ضحكة هستيرية قصيرة جوفاء؛ فالقلم ثمين، تحفة فنية، أعتز به ولا أستخدم غيره طوال ما يقرب من ربع قرن من الزمان؛ فما الذى اكتشفوه فيه الآن يا ترى؟!

ها هم يقلبونه فى حذر وخوف شديدين؛ كل واحد يسلمه إلى الآخر فيتلقاه مصدوما يكاد يتراجع إلى الوراء من الرعدة. ذلك أن شكل القلم غير مألوف؛ إذ هو تخين جدا، مقلوظ الرأس بطربوش معدنى لميع؛ يشبه

أصبع الديناميت غير أنه شديد الفخامة مصنوع من معدن ثمين أزرق اللون، غطاؤه محزم بدوائر فضية، ومشبكه ذو ميكانيزم دقيق حيث يمكن الضغط على طرفه الأعلى فيرتفع المشبك ليحتوى أية تخانة؛ ثم إن سنه من البلاتين الخالص، ويعمل بواسطة أنبول جاف يستبدل بغيره كلما نضب؛ تحت مشبكه باللون الأحمر علامة مسجلة باسم شركة عالمية كبرى اسمها هارى متخصصة فى الموتيسيكلات والمصنوعات الجلدية بكافة أنواعها؛ يباع بحوالى ثمانمائة دولار، ويعطى كهدية لمن يشترى من الفرع الرئيسى بعدة آلاف. كنت أزهو به دائما، ولا أضعه فى جيبى حتى لا أعيره لأحد وحتى لا يضيع، وحينما يستلفت نظر أحد زملائى أثناء كتابتى به أزعم أننى اشتريته بحر مالى فى إحدى سفرياتى المزعومة.

طال تفحصهم للقلم حتى صفيت كل أنبولات الدم داخل عروقى. ولما رأيتهم يفتحونه ويفكون أوصاله قطعة قطعة فى جدية هائلة خفت منه، خفت من قلمى الذى عاشرنى ربع قرن على الحلوة والمرة أبثه أشواقى ولواعجى وأسرارى وأمنياتى وآمالى وأفراحى وأحزانى، أقدسه وأدرك أنه الشىء الوحيد المحترم فى هذا العالم؛ الوحيد الذى يليق بأن أجلس أمامه عاريا كما ولدتنى أمى، الوحيد الذى يليق بى أن أعترف له وأن أعطيه ظهرى وأنا آمن. الآن شعرت بأن هذا القلم اللعين لابد قد خدعنى فى شىء ما، بشكل ما، وأنه دبر للإيقاع بى وعما قليل قد يوردنى موارد التهلكة. صرت أضحك بشكل هستيرى ضحكات شاحبة مزعجة فارغة من المحتوى كخبط الصفيح فى الصفيح؛ فيما رحت أهذى كأننى أتبرأ منه:

ـ «ها.. هىء.. ظننته والله تحفة لطيفة تثير الإعجاب!! آسف! لم

ألاحظ أن شكله مزعج!! أصله جاءنى هدية من صديق يقيم فى أمريكا!! لم أدفع فيه مليما!! ربك والحق هو حمار شغل ليس مثله بين الأقلام الحديثة!! لهذا فحسب أحمله معى فى حافظتى!! على فكرة إنه قلم لطيف . . يمكننى أن أستغنى عنه لأحدكم إن كان يروق لكم!! عندى أقلام كثيرة! كثيرة جدا!! تفضل خذه لو أردت! صحيح! صدقنى! لقد سئمت منه وأريد تغييره وهذا كل ما فى الأمر!!».

لكنه أعاده لى مفكوكا. وكان متجهما لدرجة أشعرتنى كأننى لا أزال تلميذا صغيرا غرا فى المدرسة الابتدائية أمام مدرس ابن قحباء لا يرحم. مددت يدى فتلقيت أشلاء قلمى. من فرط الشعور بالغيظ والمهانة رفعت يدى لأرمى بالأشلاء على طول ذراعى وقد خيل لى لحظتها أنها صارت مجرد أشلاء يستحيل وصلها، وأن القلم قد انفض سره وانفك سحره ولن تقوم له قائمة بعد الآن . . فإذا بقبضة حديدية تقبض على يدى، وصوت حديدى يأمرنى بغلظة وحدة:

ـ «ضعه فى جيبك! إياك أن ترمى بأى شىء هنا!».

دسست أشلاء القلم فى جيب الحافظة. عبرت المستطيل الخشبى إلى الداخل حيث استرددت سلسلة مفاتيحى وساعتى وخاتمى الفضى. مضيت نحو القاعة أتعثر وأتخبط أمام نظرات فضولية لا حصر لها كانت تتابع الموقف فى شغف عجيب تفوح منه رائحة الشر النفاذة. أخذت النظرات ترمقنى فى استرابة، توسع لى الطريق وكأننى وباء معد، حتى الذين أعرفهم ويعرفوننى من زملاء وأصدقاء أشاحوا وجوههم عنى.

ارتميت على أول مقعد قابلنى. رحت فى غيبوبة كاملة انقطعت خلالها

صلتى بكل شيء حولى. وحين أفقت فجأة فاتحا عينى بصعوبة خلل العماص المتكلس كانت كتل الزحام تدفعنى نحو الباب ذى المستطيل الخشبى وكانت الشمس تزحف إلى المغيب؛ لكن الوجوه من حولى كانت كلها جديدة تماما؛ لم أتعرف على أى وجه. على أن شعاعا ضئيلا جدا من الضوء انبثق فى رأسى ثم انطفأ كلمعة عود الثقاب العاجز عن الاشتعال تحت ريح عاصفة. على ضوئه الخافت تبينت أننى قد دخلت هذه القاعة على نحو ما منذ حوالى سبعة عشر عاما وها أنذا أخرج منها. تيقنت من صحة هذا لأن نفس الخاطر المألوف لى قد راح يراودنى مكررا نفس العبارة التى لم تتحقق أبدا: هذه آخر مرة أحضر فيها مثل هذا اللقاء.

الفتح المبين

منذ أن هدانى الله وتبت إليه توبة نصوحا عن كل فعل أو قول يغضبه سبحانه وتعالى، ووفقنى فى أمور معاشى حتى راجت تجارتى. كثرت فلوسى، تبغدد عيالى عن حق ليقينهم بأن كل مليم يدخل دارنا إن هو إلا سبيكة من العرق والشقاء والرزق الحلال، وأكرمنى بالحج وزوجى مرتين وبالعمرة وحدى عدة مرات. . منذ أن بدأت بشاير هذا التوفيق الكبير وإلى اليوم، وزعلى من نفسى يتعاظم لتقصيرى فى حفظ المزيد من سور القرآن الكريم، من جهة لكى أصلى بها، ومن جهة أخرى لأفهم وأستعبر بحكمة الله فى قرآنه العظيم. وصحيح أن الله سيغفر لى ويسامحنى طالما أنى أصلى وأصوم وأزكى وأفعل كل واجب فرضه علىّ سبحانه إلا أننى كلما استمعت إلى سور القرآن شعرت بخسارة فادحة من عدم حفظ هذه الدرر فى ذاكرتى وقلبى ولسانى. والحق أنى حاولت بقدر ما أستطيع، جئت بفقيه ضرير لكى يحفظنى سورا من القرآن يقولها أمامى وأنا أرددها وراءه مرات ومرات حتى تثبت فى رأسى. والحق لله لقد تعب الفقيه معى حتى خرج عن طوره أكثر من مرة، ذلك أننى أطلع من دارى فى الخامسة صباحا متوكلا على الله إلى سوق الخضار فى غمرة فأتسوق حصتى وأعود بها إلى سوق منشية ناصر لأرزق من بيعها بالقطاعى وسواء نفدت السبوبة أو بقيت منها بقايا فإننى لابد أن أغادر السوق إلى الدار عقب أذان العصر لأتوضأ

وأصلي وأتغدى وأتكوع فى الفراش إلى أن يحين المغرب فأصحو وقد انمحت من ذاكرتى كل الأشياء فما بالك بالآيات التى كنت حفظتها بالأمس بشق الأنفس؟ وعقب صلاة المغرب يأتينى الفقيه ليشرب الشاى معى ونراجع الآيات فيجدنى قد بدأت سورة ثم خرمت على سورة أخرى. وأخيرا يئس الفقيه من مخى الضلم وزهقت أنا من عصبيته المتصاعدة إلى حد اتهامى بأننى سأجلب عليه الكفر والعياذ بالله من تخريمى فى السور كحصان يبرطع فى حقول مزروعة بالورود والبلاسم. إلا أن زعلى من نفسى كان مثمرا فى الواقع، فأنا مغرم بصلاة الجماعة ألتمسها فى أى مكان أذهب إليه حيث الإمام يرتل القرآن فى الصلاة بصوت مسموع ورخيم فترتسم الكلمات فى رأسى بأشكال صوتية من المد والغُنّ والتنغيم والتوقيع حتى النقطة فى نهاية الجملة كنت أسمع لها وقعا فى صدرى كصوت آخر نقطة تسقط من القطارة فى كوب الدواء فتنقره. استطعت أن أحفظ عددا من قصار السور يعدّ على أصابع اليدين، أوزعها على صلواتى، إلا أن سورتى: «الفجر» و«الضحى والليل» كانتا دائما على طرف لسانى، الأولى إذا كنت أصلى الفجر والثانية إذا كنت أصلى الظهر أو العصر أو العشاء.

على أن الفرصة الكبيرة جاءتنى مؤخرا فيما أنا أقترب من سن السبعين بصحة لا بأس بها، حيث قل نزولى إلى السوق، وطال مكثى فى الدار ساعات طويلة بعد الظهر، وفى الليل صرت أقضيها مع محطة القرآن الكريم، فحفظت من تكرارها عددا آخر من السور الطويلة إلا أننى لا أغامر بقراءتها عند الصلاة خوفا مما يمكن أن يحدث لى من تخريم بين السور نتيجة تشابه بعض العبارات هنا أو ها هنا. فإذا ما نصب العيال

سهرتهم حول الفيلم فى التليفزيون تركت لهم الطابق الأرضى كله وصعدت إلى غرفتى لأواصل السهر مع محطة القرآن الكريم أسمعه أشكالا وألوانا من النغم الحبيب المرعش المنعش فى آن . . ياللحلاوة والطلاوة حينما أفتح عينى فى الصبح ذى اللون القمحى على صوت الشيخ الحصرى فى المصحف المرتل. هو سلوتى طوال بقائى فى الدار، إن غاب من المحطة شغلته فى شريط التسجيل عودا على بدء. وهى متعة لا يحرمنى منها سوى متعة أخرى صغيرة هيأها الله لى فى شيخوختى لكى تسلينى وتجدد نفسيتى؛ تلك هى مشاغبات «حود» - يعنى محمود - آخر حفيد لى من ابنى الصغير محمد، فى الثالثة من عمره لكنه ذكى بصورة تؤكد بالفعل أن مواليد عصر التليفزيون والمسمى بالكمبيوتر والدش والفضائيات لابد أن يكونوا أشباها لمخترعات عصرهم، وتربة أمى لست أمزح، فكثيرا ما أنظر لحفيدى محمود على أنه اختراع حديث من اختراعات العصر لأنى لم أر طفلا يولد متواصلا مع كل شىء حوله سوى حفيدى هذا، الذى حاورنى بدون أى مفردات من الكلام، مجرد أهأهة وفأفأة وصيحات مصحوبة بحركات فيها خبرة ثلاثة آلاف مليون سنة، ما يريد إفهامه لى يقوم بتمثيله بحركات بليغة موهوبة ذكية تزلزل الصدور من الضحك المبتهج. ينادينى دائما بفرحة: «ججُه»، يعنى جدو، أرد عليه: نعم، فيشير إلى جهاز التليفزيون برأسه، وبأصابعه الدقيقة يضغط على أزرار وهمية فى يده الأخرى، فأعرف أنه يطالبنى بفتح التليفزيون. وإن ما يدهشنى هو أنه بهذه الطريقة يحكى لى كل ما يكون قد رآه من أبيه وأمه وقد اعتاد أن يدلدل رأسه من سور السلم فى الطابق الثانى ليناديني بأعلى صوت: «ججُه» فأشعر من نبرة صوته أن فى الأمر فجيعة فما إن أصعد إليه حتى أعرف منه أن أبويه تناقشا بصوت عال فظن أنها المعركة فاستنجد بى

لإيقافها. الجميل فيه أنه حين يرانى أصلى يقف ورائى ويفعل كل ما أفعله من ركوع وسجود، وكثيرا ما يرغمنى بقوة الصياح والصراخ على أن أعيد الصلاة ثانية ظنا منه أنها لعبة نشترك فيها معا ـ الأجمل أنه إذا سمع صوت الأذان فى أى لحظة يندفع نحوى صائحا: ججُّه. . إه. . ويرفع يديه بجوار أذنيه كأنه ينوى الصلاة مرددا: أَبَّر أَبَّر ـ يقصد الله أكبر.

قبل بضعة أسابيع سمعته ينادينى وهو على بسطة السلم بصوت بهيج ملهوف: «ججُّه». خفت عليه أن يتدحرج على الدرج الحجرى فاندفعت نحوه صائحا: «انزل واحدة واحدة»، ثم تلقفته من منتصف السلم: «عايز إيه؟». فلفص حتى نزل واقفا على الأرض وسحبنى من جلبابى إلى باب الخروج.

ـ «عايز نروح فين؟»

صنع من إبهامه مبسم شيشة وصار يشفط وينفخ فيه، فعرفت أنه يريد أن نذهب إلى المقهى لنشرب الشيشة والشاى. لكننى بينى وبين نفسى أيقنت أنه يستدرجنى لمهمة غامضة يتعين علىّ أن أكون طرفا فيها بشكل ما، ومن ثم فيجب أن أمضى معه لملاقاة هذه المهمة خارج الدار عملا بالقول المأثور: «خذوا فالكم من عيالكم». وقد صح ما توقعته؛ فما إن خرجنا من الحارة إلى الشارع حتى جذبنى من الجلباب إلى اتجاه سوق منشية ناصر بعيدا عن اتجاه المقهى؛ فوجف قلبى فى الحال واضطربت خطواتى: لقد تركت أباه فى السوق عند أذان العصر ليبيع بقايا السبوبة فماذا يمكن أن يكون قد حدث له يا ترى حتى يلهم الله طفله هذا ليستدرجنى إلى السوق كى ألحق به؟ودبت فى أوصالى حماسة وجدية، حملت الطفل على صدرى، صرت على طريق الأوتوستراد. أشار لى على كوبرى المشاة:

ـ «جِجُّه . . ده . . جِجُّه . . ده»

صعدت إلى الكوبرى وأنا فى قمة التوجس والترقب. لحظتئذ انطلق صوت أذان المغرب محلقا فى الفضاء آتيا من كل اتجاه. قلت الله أعظم والعزة لله، ولكزت الطفل فى كثير من الحب وقليل من الغيظ:

ـ «فوَّتّ عليّ صلاة المغرب جماعة يا عكروت. . ربنا يستر»

عند هبوطنا الدرج أمام سوق منشية ناصر ناداني ابن أختى الذى يعمل معنا فى نفس التجارة مستقلا بدكان منفرد. .

ـ «فين محمد يا ناجح؟»

ـ «قاعد هناك اهه جنب نصبة الشاى»

خرمت عليه مدفوعا بفرحتين: فرحة لأنى وجدت ولدى طيبا دون مكروه حدث له، وفرحة لاكتشافى أن مسجد العشيرة المحمدية لا يفصلنى عنه إلا خطوات معدودة وفى استطاعتى اللحاق بصلاة المغرب جماعة سيما وأننى متوضئ جاهز دائما للصلاة. كان صحن المسجد يشغى بالمصلين، حوالى أربعمائة رجل انتهى معظمهم من تأدية ركعتى السنة وتقرفصوا متذمرين يتساءلون عن الشيخ الذى سيؤمهم للصلاة. من تعليقاتهم عرفت وأنا أعبر العتبة متأبطا حذائى أن الشيخ الإمام لم يحضر.

ما كدت أن أخطو بينهم بعمامتى الصعيدية وجلبابى الكشمير المعتبر والشال الكشمير أيضا ومن فوقه العباءة مطوية، حتى صاح الكثيرون:

ـ «أهو وصل. . الشيخ وصل. . خلاص يا جماعة!»

نهضوا جميعا واقفين يستحثوننى على الإسراع. تسمرت أنا فى وقفتى

محاولا إيقاف الرعشة العنيفة فى ساقى. أخيرا تمكنت من العثور على صوتى:

ـ «يا جماعة: أنا لست الشيخ! . . فيكم ناس متعلمين!

أنا راجل على باب الله و. . و. . و. . »

توالت التعليقات الرافضة لكلامى:

ـ «اتكل على الله يا مولانا ما تضيعش وقت»

ـ «إحنا عارفين إنك متواضع وطيب القلب»

ـ «هذه طبيعة الشيوخ العلماء»

ـ «اللهم قربنا منهم»

بقوة الدفع الذاتى وجدتنى فى محازاة المنبر أمام الإيوان حيث يقف الإمام. رفعت ذراعى وطلبت إقامة الصلاة فانبرى واحد ذو صوت رخيم فأقام الصلاة. نويت، فرددوا خلفى فى زئير يزلزل الأرض من تحتى. قرأت الفاتحة ثم سورة «والضحى والليل» بصوت عال محاكيا قراءة الشيخ الحصرى بدقة وحميمية؛ ثم ركعت. وفى الثانية قرأتَ سورة الفجر. وفى الثالثة قرأت فى الخفاء سورة «قل هو الله أحد». قرأت التحيات فى تأن وخشوع، ما إن سلّمت ذات اليمين وذات الشمال حتى انهالت على السلامات من أيدى القوم وفى نظراتهم إعجاب وامتنان غامضين. وأثناء عودتى للدار كنت أمشى منتشيا أحتضن محمود كأنه شهادة نجاحى فى أكبر كلية فى الوجود.

جلباب من الزفير المقلم

أن يشـتـرى لى أبى جلبـابا جـديدا، أمـر ليس سـهـلا على الإطلاق؛ لأسباب كثيرة جدا؛ لا أبى يبوح بها؛ ولا أمى تريد أن تشرحها لى. إنما تظل تضربنى وتقرصنى فى مواضع موجعة كلما عدت بالجلباب مفتوقا أو ممزقا. إن كان مجرد فتق فإن القرصة لا تكون قاسية إذ الفتق يسهل إعادة تخييطه ولو بجعل الفتلة «مجوز» حتى لا تتفتق الخياطة ثانية، مع تضييق الغرزة وتجميلها وعَقد آخر الفتلة عقدة مُحكمة. أما إن كان تمزيقا فربما ضربتنى بقحف الجريد حتى يلتم القوم على صراخى فيخلصوننى من يديها وهى تعجن فىّ وتعضّنى وتنتفض صارخة مولولة:

ـ «حيرنى يا خواتى ربنا يحيره! أجيب له منين كل يوم جلابية؟ طهقت منه يا مسلمين!».

حينئذ أكتم بكائى شاعرا بالحزن، فلابد أننى بتمزيقى للجلباب أتيت أمرا خطيرا يحق لأمى أن تُشهد على جرمه كافة المسلمين!.

حرمت على نفسى الخناق، بل امتنعت عن اللعب مع العيال نهائيا، خوفا من أن يشد أحدهم الجلباب ولو دون قصد فيتمزق. لكننى لم أكن أملك حتى ذلك؛ فكثيرا ما يتحرش بى العيال بدون سبب، ربما لأننى لا

أتحرش بأحد: يلكزنى أحدهم فجأة فأمسك فى خناقه، ولكن سرعان ما أنسحب قبل أن يتمكن هو من شد جلبابى.

على أن الجلباب اللعين قد بات يتمزق من تلقاء نفسه. أصحو من النوم فأراه ممزوعا من الكتف، ، فترمينى أمى بالمسئولية، لأننى بنومى العفاريتى تمطعت فى الجلباب فمزقته.

أخرج إلى الخلاء لأقضى لهم طلبا من الدكان؛ أحاول صعود رصيف الدكان؛ فينشدّ الذيل ويتمزق، فيفزعنى صوت المزع كأنه مزع قلبى. أرجع إلى الدار باكيا، مقسما بالنعمة الشريفة أنه تمزق وحده.

هذا الذيل فشلت أمى فى علاجه من كثرة ما تمزق؛ فتعلمت كيف أخيطه بنفسى من ورائها؛ وقد حرصت دائما أن أخفى إبرة وخيطا ملفوفا على ورقة والإبرة مشبوكة فيها؛ لأنزوى تحت السلم فأخلع الجلباب وأرتقه.

على هذا سارت الأمور بضعة أيام. إلا أن ذيل الثوب قد بدأ يضيق ويضيق، فكلما خيطته مرة أخذت من وسعه ـ ثم من ضيقه ـ فى الخياطة؛ حتى بات الذيل فى وسع كُم جلباب أبى، وأصبحت مضطرا للمشى بحساب: ما إن أمد القدم حتى أوقفها لتلحق بها الأخرى، أو أتصنع اللعب والشقاوة فأمشى حجلا وتنطيطا. ذلك أن دائرة الذيل لم تعد تعطى لقدمى حرية الحركة؛ فكنت أشعر أن قدمى تلتفان حول بعضهما؛ فأقع، فأصير مهزأة العيال والكبار، فأرجع باكيا.

بت أتحين الفرصة لرؤية وجه أبى منبسطا ذات لحظة لكى أتسلل إلى جواره فى هدوء لأقول له فى حذر: «آبا.. اشترِ لى جلابية!» وأكون

مستعدا للبكاء على الفور إذا ما بدرت منه بادرة زجر. لكن وجه أبى لا ينبسط أبدا، يظل على الدوام يطردنى ويطردنا كلنا من حوله. فكنت ألجأ إلى البكاء المستمر، لعل أبى يسأل عن السبب فيعرفه فيمحوه. على أنه لم يأكل من هذا الكلام؛ فإذا هو يشخط فىّ صارخا بالكف عن البكاء والزن إذ إن الأمر ليس ينقصنى أنا الآخر! فأبول على نفسى من فرط الرعب ثم أسكت فى الحال. جربت الامتناع عن الطعام؛ فكانوا عقابا لى لا يبقون لى نصيبى؛ فإذا جاءت الوجبة التالية لا يقولون لى: تعال كُلْ!!..

أمى لم تعد تطيق النظر فى وجهى، مع ذلك يحلو لها أن تتأملنى من تحت لتحت، ثم ـ فجأة ـ تشوح فى وجهى صائحة بقرف:

ـ «يا ساتر يا رب! تكشيرة أبوه بعينها! يا شيخ فكها حبه! فكوها انت وابوك فكيتوا عُقَل ظهرى!»

يقشعر وجهى، يغلبنى البكاء، تتابعنى فى حسرة:

ـ «يا حرام! إنت راخرمش قادر تكسى العيال! ميعاد الطحين قرب ومعاكشى فلوس؟!»..

تصفق بيديها فى غل مكبوت:

ـ «إلهى ربنا ينتقم من.. من.. من الظالم! واللى كان السبب!»

ثم يرتعش صوتها كمليون قطة تموء دفعة واحدة مواءً يقطع نياط القلوب:

ـ «حسبى الله ونعم الوكيل! حسبى الله ونعم الوكيل!»

أنحاز إلى ركن قريب؛ أتكور فيه مستغرقا فى نوم ثقيل الوطء، أرانى

خلاله أركض فى أزقة وحوارى غامضة فى بلدان لا أعرفها، ألتقى بناس لا أعرفهم عبر ظلام شبه تام وأنا عار تماما وعامود رفيع وافد من الشمس من خلل سقف الظلام مسلط علىّ وحدى دون الآخرين ويمشى معى فأشعر بخجل شديد من فضح عورتى.

صحوت قلقا على يد تعبث بى، حدقت مذعورا فى جوف الظلمة المخيمة على حجرتنا. تبينت فوق خيمة الظلام ثمة مصباح غاز نمرة خمسة يرقد كلاجئ صغير فوق رفه القصى قرب السقف، عاريا هو الآخر، فثوب ضوئه ممزق من كل ناحية. رأيت أبى، كان يحاول تغطيتى وعدل جسدى فى الفراش، يتحسس بقايا جلبابى؛ ودموع على خديه طازجة. خيل إلىّ أنه الحلم، فأغمضت عينى وغبت فى النوم. لكننى صحوت من جديد على يد تهزنى. فتحت عينى، رأيت وافد الشمس العمودى فى عينى مباشرة يتساقط من خلل سقف الحجرة بين أعواد القش والحطب محملا بذرات التراب حاملا لون البرتقال.

اعتدلت جالسا؛ رأيت أمى جالسة عند قدمى فى نهاية المصطبة الكبيرة؛ وكانت تحمل قطعة قماش من الزفير المقلم؛ نفس قماش جلبابى الذى رحت أجمع بقاياه حول جسدى فيما أدعك عينى. قالت أمى بسعادة بدت مشروخة وهى تقدمه لى:

- «خلى المعلم فرحات يفصلهولك بلدى من غير ياقه ولا أساور!».

فتحت فمى لأحتج بأن تلاميذ المدارس لا يلبسون إلا بالياقة والأساور؛ فإذا بى أرى رجلا يجلس فى مواجهة أمى على المصطبة. عرفته؛ إنه محمود سرحان الفلاح المترف، النظيف الجلباب على الدوام، المحمر

الخدين. كان يبتسم ابتسامته الطيبة. اندهشت من وجوده فى هذه اللحظة فى قاعتنا مع أنه لم يزرنا فى حياته ولم يكن صديقا لأبى.

حين تخلصت جفونى من شبكة العماص الناشف رأيت أمام الفرن جوالين فيهما قمح وذرة؛ فتعاظمت دهشتى، إذ إننا فى العادة لا نشترى هذه الكمية للطحين؛ بالكاد نشترى ملء قفة كل جمعتين. مدَّ محمود سرحان يده وربت ظهرى برفق:

ـ «مش يلا بقى؟!»..

التفتُّ إليه مذعورا. قالت أمى:

ـ «يلا اغسل وشك علشان تتوكل على الله معاه!؟»

مذعورا أيضا التفتّ إليها. أخذت أهرش فى جنبى توقعا لخبر داهم. لكن قبل أن أفتح فمى لأسأل؛ عرفت أن هذا الرجل قد اكترانى بهذه الكمية من الحبوب وهذا الجلباب؛ لمدة ثلاثة أشهر، كنفر فى نقاوة الدودة؛ حيث إن له فدان قطن تبع الإصلاح الزراعى؛ وعلى كل صاحب فدان أن يقدم للإصلاح نفرا.. وعلىَّ أن أستيقظ كل يوم قبل شروق الشمس لألحق بفرق المقاومة عند ملم الأنفار، لأعود بعد غروبها. وأهم من ذلك علىَّ أن أكون منتبها حين يجىء كاتب الإصلاح ليحصر الأنفار؛ فإذا نادى قائلا: محمود سرحان؛ أرد عليه صائحا بأعلى صوت: أفندى.

عدل المسامير

سلمنى أبى إلى المعلم بدر محمود ـ أشهر وأقدم نجار فى بلدتنا ـ قائلا له :

ـ «أريد أن تجعل منه رجلا صاحب صنعة! خذه بالشدة . . افعل ما يحلو لك فأنا استغنيت عنه!» .

ولكى يثبت صدق قوله، وليشجع المعلم بدر، ويريه عيِّنة من المعاملة التى يطلبها لى، صفعنى على وجهى بضع صفعات طيَّرت الشرر الأحمر من عينى . أمسكت بعينى ساقطا فى الأرض، أصرخ بكل قوتى لعلى أوقف ما شبَّ فى عينى من لهب .

ولم يكن لذلك ثمة من سبب سوى أننى طلبت الذهاب إلى المدرسة وهو غير قادر على الصرف؛ وفى نفس الوقت لم أكن أصلح كنفر للشغل فى الوسية؛ الأمر الذى جعله يضيق بى وبوجودى كله كأننى العقبة الوحيدة فى حياته ومانع رزقه . سمعته فى الليل الجوانى يقول لأمى فى استنكار يفيض بالهزء والسخرية فيما أنا متمدد على حصير فوق الأرض بجوار إخوتى :

ـ «مدرسة!! يعمل أفنديا على آخر الزمن! البلد ينقصها الأفندية! من بكرة لابد أن يتعلم صنعة تنفعه! لابد أن تنكسر نفسه ليعرف أن الله حق!!» .

لحظتها كانت أمي تفلينى، بتسريب يدها المخشوشنة تحت ثوبى المتهرئ، فتمسك بالقملة المتفخة تلقى بها فى فمها بين أسنانها فتطرقع. كان صوت الطرقعة يصنع إيقاعا أليفا لعودة يدها إلى ضلوعى وخروجها منها. توقعت أن تقول شيئا لكنها بقيت صامتة؛ ربما لأن فمها مشغول بما هو أهم؛ فدفاعها عن دمى الذى تمصه هذه الحشرة الخبيثة؛ لا يشفى غليله سوى أن تقرش الحشرة بأسنانها؛ مما شغلها عن قول كلمة تدافع بها عن مستقبلى المهدد بالضياع. حينئذ شعرت بأن يدها قد بدأت تضايقنى فبدأت أتململ فى رقدتى لأعوق يدها عن السرحان بين ضلوعى؛ فما كان منها إلا أن شكمتنى فى فمى بقبضتها الثقيلة فى غضب؛ فلما تألمت متأهبا للبكاء قرصتنى بعنف شديد فى فخذى، مدمدمة من بين أسنانها المطبقة: هُسّ اكتم. فظللت منكتما حتى خرج أبى لصلاة الفجر فانفتحت فى البكاء. وكلما تماديت فيه لطمتنى على وجهى لأسكت، فيزداد بكائى، فيتضاعف لطمها لى مهددة إياى بدفن رأسى فى الكنيف إن تسببت فى إيقاظ إخوتى من النومة الحلوة. عند ذاك تعبت فاستغرقنى النوم برهة وجيزة، ما كدت أشعر براحته حتى صحوت على يد تهزنى بقوة. وكانت الشمس طالعة، وأبى واقف فى الدهليز ينتظرنى. غسلت وجهى بملء كوز من ماء الزير المثبت فوق قاعدة من الأسمنت فى ركن من الدهليز، ثم أكلت نصف بتّاوة مع رأسين من اللفت، وجرعت كوب ماء، ومضيت خلف أبى.

رفعنى المعلم بدر عن الأرض بيده الكبيرة المليئة بشعر كثيف، فاشخا حنكه عن أسنان كبيرة صفراء بارزة فى تقوس، فبدا حنكه كشرخ فى قبة ضريح آيل للسقوط. قال:

ـ «محلا يا محلا! خذنا يا ولد فى عشرة لهجة! أنت لم تشهد الضرب على أصوله! أنا لا أضرب إلا بالشاكوش خل بالك!».

ثم كلفنى فى الحال بالمهمة التى لابد أن أتمرن عليها حتى أتقنها . قدم لى صندوقا خشبيا صغيرا يمتلئ لحافته بمسامير قديمة صدئة معووجة وملتوية وحلزونية، تم نزعها من خشب قديم كان أبوابا وشبابيك وطارات سواقى وألواح أسقف. سلمنى الصندوق وقطعة من قضيب حديدى ثقيل تشبه السندان، وشاكوش، وأمرنى أن أعدل هذه المسامير واحدا واحدا، بحيث أمسك المسمار من رأسه الدائرى المبطط، فأثبته على السندان وأدق عليه بالشاكوش، مقلّبا مسويا حتى يأخذ وضعه الأصلى ويصبح قابلا للدق من جديد فى الخشب.

مهمة ما أشد ثقلها وعذابها. ضربات الشاكوش تتساقط فوق أصابعى مرات عديدة قبل أن تسقط على المسمار مرة واحدة، حتى صدئت يدى وتورمت أصابعى وباتت موضع ألم لا ينتهى. مع ذلك لم يكن شغلى يعجب المعلم بدر، الذى كان يحلو له مراقبتى من بعيد؛ لأفاجأ بيد كالمرزبة تسقط فوق قفاى فتكفؤنى على وجهى:

ـ «اعدل المسمار بذمة! تمكث نصف يوم فى عدل عشرة مسامير؟!»

تظل يدى بعد ذلك ترتعش؛ يتضاعف المسمار الواحد بين أصابعى من خلل الدمع المنسكب، فأمد ذراعى لأمسح عينى بكم جلبابى القذر الملىء بالعرق والوسخ. لكننى وإن دُربت على عدل المسامير جيدا، لم أكتسب السرعة المطلوبة، مما كان يعرضنى للضرب بكافة الأسلحة المتاحة: بيد الشاكوش الخشبية فوق جبهتى وأصابعى، بخيزرانة تساق بها الحمير، بمرينة من الخشب على ضلوعى، بالفارة تقذف فى صدرى من بعيد،

بصندوق المسامير نفسه، بروث البهائم، ببراد الشاى؛ فما زادنى كل ذلك إلا لخمة وارتباكا.

مضيت وراء المعلم بدر محمود أحمل المنشار معلقًا فى كتفى كالبندقية، والفارة فى يد، والقادوم والشاكوش فى اليد الأخرى. كنا مشغولين طوال الأيام الفائتة بتركيب «مقعدين» - يعنى حجرتين فوق دار كبيرة - من خشب البغدادلى. والمعلم بدر أروب فى هذه الصنعة، يصنع الجدران فى الورشة وهى عبارة عن مجموعة من مرائن الخشب المتين يكسوها بشرائح رقيقة من الخشب. تنتقل الجدران إلى الدار التى ستركب فوقها، ويكون المعلم بدر قد حفر لها جيوبا فى حواف الجدران تستقر فيها، ثم يرفعها بالحبال، فيثبتها فى جيوبها ثم يساندها بمداميك من الحديد والمسامير البرمة والحدادى تربط الجدران ببعضها وتربطها بأرض السقف ربطا محكما؛ ثم يمد فوقها عروق الخشب؛ ومن الداخل - بواسطة السلم النقالى المجوز - يثبت فوق العروق القريبة من الجدار لوحا من خشب الأبلكاش يتسلقه فيتقرفص فوقه ليدق المسامير جيدا. وحينئذ يتعين علىّ أن أصعد إليه حاملا العدة، لأقعى بجواره أناوله المسامير وقطع العدة حسب أولوية احتياجه إليها، بحركة تمرنت عليها جيدا..

كنا قد انتهينا من إقامة الجدران الخشبية فى دار الحاج سيد شعوط. وبعد صلاة العصر بدأنا فى تركيب ألواح السقف وسط لمة كبيرة من الصبيان والرجال الخارجين من صلاة العصر فى جامع العصاروة المواجه للدار؛ حيث كانوا جميعا مبهورين بهذا التطور الذى أصاب دار الحاج شعوط فجعلها سراية من طابقين عاليين، فما بالك بها بعد ما يتم تغفيق هذه الجدران الخشبية بالطلاء الملون. صرت أتجنب النظر إلى الأرض من هذا

العلو الشاهق ، وأتوجس من وجه المعلم بدر الذى يكفهر فى العادة بعد العصر إذ يتأخر عليه الولد الذى ذهب ليشترى له قطعة الأفيون من السيد الجمال فى عزبة صَبّاح . صارت العفاريت تتنطط على وجهه ، والريالة تغرق شفتيه والبرابير تسيل من منخريه بغزارة فيمسحها بكم الفانلة المتسخ فيما هو منخرط مع ذلك فى دق المسامير فى ألواح الأبلكاش بحرفنة وثبات ؛ لكنه يصب غضبه على أنا وحدى :

«تحرك! تلحلح! الشاكوش يا ابن اللوطى! هل أنا طلبت الشاكوش؟ قلت القادوم يا حيوان! هات الكماشة بسرعة!»

ذلك أن مسمارا ينعوج تحت دقاته العصبية السريعة . أناوله القادوم أولا حسب طلبه ، فيصك جبهتى بيده الخشبية السميكة الصلبة صكة يطير له مخى ، ثم يرميه بجواره . من فرط الارتباك تختفى الكماشة عن عينى فى تلك اللحظة فألف حول نفسى كالدائخ أكاد أنزلق من بين عروق الخشب .

قرب المغرب جاء له الولد بسنة الأفيون ، فأصر المعلم بدر على الانتهاء من تركيب السقف على ضوء الكلوب ، فأضيفت إلى مهماتى مهمة جديدة هى تقريب الكلوب منه كلما ابتعد عنه ، فى حرص شديد حتى لا تقع الرتينة ونضطر لشراء غيرها ونضيع الوقت فى إعادة إشعاله . ولكن ما أخشى منه يقع دائما ؛ فمن لهوجتى مددت للمعلم الكماشة فلطشت الرتينة فأسقطتها ، فتحشرج صوت الكلوب ثم انطفأ . انزويت مرتعشا فى مكان بعيد أنتفض من الخوف إلى أن جىء برتينة جديدة تم تركيبها وتكفل أحد الرجال بمهمة الإمساك بالكلوب حتى انتهى تركيب السقف .

وكنت أظن أن المعلم بدر تجاهل عقابى ، لكنه قبل أن يهبط عن السقف إلى سقف الطابق الأول أشار لى فاقتربت ، فأطبق بيديه على قدمى ، ثم

برم ذيل ثوبى حولهما بإحكام، أمسك به، دفع بجسدى إلى الفراغ، رأس فى اتجاه الهاوية وقدماى مصلوبتان إلى أعلى؛ فيما راح هو يصيح من بين أنيابه:

ـ «هيه! أرميك على جدور رقبتك؟!»

تذهب صرخاتى أدراج الرياح. إذا به يمسك ذيل جلبابى المبروم، يضعه فوق لوح السقف، يثبت فيه مسمارا، وبالشاكوش يدقه فى لوح الخشب، أتبعه بمسمار ثان، فثالث فرابع؛ ثم تركنى هكذا معلقًا من قدمى وجسدى يتطوح فى الهواء، ونزل يعدل طوق جلبابه مشعلاً سيجارة. وفيما كان يخرج من باب الدار متوجها إلى داره البعيدة نظر إلى أعلى فى اتجاه رأسى المدلى صائحا بأنه ـ عقابا لى ـ سيتركنى هكذا حتى الصباح!

وها قد مضى على ذلك الحادث خمسون عامًا، ولكننى منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم أشعر بأننى لا أزال معلقًا فى الهواء من ذيل جلبابى: قدماى مصلوبتان فى وجه السماء، ورأسى يتدلى فى اتجاه الهاوية.

بَخ خلاص

نعم كـان فى الحـجـرة مـصـبـاح ، لكنه يكفى بالكاد لأن نراه وحـده فحسب . ننظر إليه فى ركنه البعيد معلقًا فى مسمار على الحائط الطينى الأسود ؛ حيث الشريط المشتعل داخل الزجاجة المنبعجة قد آب إلى ذبالة حمراء ؛ فنعرف أن هناك مصباحًا ، لا أزيد ولا أقل . . لكن لا نكاد نرى بعضنا ؛ حتى أمى التى تميز بين أجسادنا المتراصة على الحصير فى الظلام الدامس لا تكاد تميزنا من بعضنا فى ضوء ذبالة المصباح الذى فقد زيته وضؤل شريطه إلى حد التلاشى من قاع المصباح . . ها هى ذى تكلم أحمد على أنه نوال ، والحصير المبروم فى الركن على أنه أنا فى حالة انزواء .

مسكينة ؛ دخـان الكانون يكاد يعـمى عينيهـا ، وهى لا تنى تدس بين قالبيه حزم قش الأرز وأعواد الحطب وأقراص الجلة ؛ مقعية أمامه لَصْق صدغ فى حوش دار العـائلة ، ممسكة بذيل جلبابها بين يديها صانعة منه مروحة تغزو برياحها النار حتى تشتعل ليتوقف الدخان الرذل ؛ وكأنها تتسابق مع زوجات أعمامى المقعيات مثلها أمام كوانين منتشرة فى حوش الدار أمام أبواب القاعات لصق أصداغها . كل كانون فوقه حلة ؛ ولكن شتان بين ما تحويه كل الحلل .

اليوم سوق البلد ؛ لكأنه عيد الطبيخ الأسبوعى فى كل دور البلدة . مع

أذان العصر لابد أن تشتعل النار فى كافة الكوانين فى كافة الدور حتى تصير البلدة سابحة فى سحب من الدخان الحميم المشبع بروائح واعدة عامرة بالدسم. حتى وإن كان الشخص فقيرا أو حتى معدما فإنه فى يوم السوق لابد أن يطبخ اللحم الأحمر. منهم من يبيع بعض كيلات من القمح أو الأرز أو الفول أو البرسيم من خزينه؛ ومن يجمع تحويشة بيض دجاجه ليبيعها فى السوق؛ ومن تجمع حصيدها من الزبد والسمن والجبن لتفرش به فى السوق. . كل ذلك من أجل شراء ورقة اللحم، حتى المعدم لا يعدم وسيلة، يتجول فى السوق، يتوقف ذليلا أمام سيبات الجزارين يأخذ من هذا هبرة ومن ذاك عظمة ومن ذاك بعض فضلات الكرشة. . المهم أن كانونه لابد أن يشتعل هو الآخر ليتصاعد الدخان مشبعا برائحة اللحم البلدى المسلوق والتقلية.

ولكن ماذا تفعل أمى بعد موت أبى الذى كان نفرا زراعيًا يعيش على ذراعه يشتغل يومًا ويتبطل عشرا؛ دجاجاتها القليلة لا تبيض إلا نادرا؛ ليس عندها ثمة من خزين تتنازل عن بعضه، أو بهيمة تدر لبنا، لا حبوب لا سمن لا جبن فيما عدا بلاص المش المليء بقرون الفلفل. إنما هى عنيدة، مريضة بالكبرياء، تصر دائما على أن تستر نفسها وعيالها أمام سلايفها، تبادر بإشعال الكانون قبلهن، تضع الحلة فوقه ملآنة بالماء فحسب؛ فى مناورة محكمة ترفع غطاء الحلة من حين لآخر وتقلب فيه بالمغرفة ولا مانع فى أن تشفط بلسانها رشفة ثم تضيف قليلاً من الملح دون أن ترفع الغطاء تماما. هى تعرف أن عيال الحارة - مثل كل عيال البلدة - درجوا على الخروج قبيل المغرب للتباهى أمام بعضهم؛ كل عيل يمسك برغيف قابب يضع فى حفرة فيه حفنة من التقلية، يقعد بجوار العيال فاردا حجره واضعا الرغيف

فيه، يروح يخلط اللقيمات بحبات التقلية ويأكل فى بطء حتى يراه من لم يره. ظهور التقلية فوق الرغيف فى يد عيّل من العيال هو الدليل القاطع على أن أمه طبخت اليوم، يعنى أنهم سيتعشون الليلة لحما كبقية الخلق.

مناورة أمى تكتمل تماما حين تنحى الحلة عن الكانون ـ وهى لا تحوى سوى الماء المغلى ـ وتضع الطاسة بدلا منها فوق النار، تسيح فتفوتة السمن، تلقى بالبصل المبشور فوقها فيطش يصنع مهرجانا لافتا، تروح تقلب فيه حتى يحمر ويجف، تسحب رغيفًا تضع فوقه حفنة من التقلية تأمرنى أن أخرج به إلى الخلاء لآكل على مرأى ومسمع من عيال أعمامى وجميع العيال، تقرصنى عشرات القرصات الموجعة ـ كعينة من عقاب قد ينالنى ـ وهى توصينى مشددة الوصية لدى كل قرصة بألا أفتح خشمى أمام العيال بأننا لم نطبخ شيئا، إياك إياك، سأقطم رقبتك، سأكويك بالنار إذا سألك أحد وقلت له إننا لم نطبخ، قل إن أمى طبخت لحما من السوق، وعند الأكل إياك أن تصيح قائلاً: هاتوا منابى.

تفعل هذا كل يوم من أيام السوق مع أننى أصبحت ملمًا بحقيقة الأمر بل وتوليت عنها مهمة التنبيه على إخوتى بما كانت تنبهنى إليه. وفى ذلك اليوم الذى لا أنساه وضعت أمى حلة الماء المغلى بجوارنا وجعلت تبربش بعينيها فى ضوء المصباح الذى لا يكشف إلا عن وجوده فحسب؛ توزع علينا الأرغفة وفوق كل رغيف حفنة من التقلية. أختى وهيبة هى أصغرنا جميعا يومذاك، عمرها ست سنوات فقط، مزعجة فى أكلها وشربها دائمًا، عينها فارغة، إذا رأت شيئًا فى يد عيل من العيال ولم تدركها أمى بالقرص المؤلم العاجل فربما هددت بفضيحة. كنت أشعر أن أمى فى غاية التوجس منها الليلة؛ ذلك أن أحد أعمامى عزم ناسا من علية القوم

يتعشون الآن فى قاعته؛ وأمى إذا رضيت مضطرة ـ على عينيها ـ بشبهة الفضيحة أمام سلايفها فإنها قد تقتل نفسها وربما تقتلنا جميعا إذا تجننت أختى وهيبة ورفعت صوتها طالبة منابها مثلما نسمع عيال أعمامى فى قاعاتهم يفعلون الآن. حقا لقد صدق المثل: من يخاف الذئب يطلع له الذئب من حيث لا يدرى؛ فإن هى إلا برهة وصاحت أختى وهيبة بغُنَّة سمجة من أنفها وحلقها معًا:

ـ «هاتوا منابى»

دلع الفقارَى يفقع المرارة فعلاً. كان الدلع فى صوت أختى وهيبة لحظتئذ قد فقع مرارتى حتى هممت بأن أشيلها وأهبدها فى الأرض قبل أن يفضحنا مواؤها. لكن الله ألهمنى، طويت قبضتى على قطعة خبز من الرغيف الشمسى المنتفخ، رفعت غطاء الحلة، غمست يدى بقطعة الخبز فيها محتملاً سخونتها، ثم رفعت قبضتى بقطعة الخبز يشر منها الماء، وضعتها فى يد وهيبة:

ـ «خدى يا ستى»

أخذتها البنت، صارت تقتطع منها بأسنانها وتأكل فى نهم وغبطة شديدين فيما رحنا نتأملها مندهشين. يبدو أن أمى شكت فى الأمر فرفعت غطاء الحَلّة وراحت تنظر فى قاع مائها البعيد؛ فاشرأبت أعناق إخوتى كلهم وصاروا ينظرون فى قلب الحلة وقد أضاءت وجوههم فجأة وانتعش على ملامحهم أمل مبهم. . كانوا يبدو على وجوههم كثير من الثقة الجازمة بأن أختهم وهيبة قد أكلت بالفعل لحمًا. يبدو أننى تشككت أنا الآخر، فرفعت غطاء الحلة وجعلت أطبش فى مائها بيدى فيما أقول لهم بجدية كأننى على ثقة من أنهم أكلوا ما كان فيها من لحم: بَحّ خلاص!!

الســور

حوش المدرسة كان أحلى ما فيها. لما رأيته أول مرة فى العام الماضى - حين أتى بى أبى وسلمنى لهــذه المدرســة - ظننت أنه لطابور الصــبــاح فحسب؛ إلى أن ضرب جرس الفسحة وصرنا نهرول فيه ونلعب الكرة حتى يضرب الجرس مرة أخرى فندخل الفصول. أحببت المدرسة والحوش والعيال؛ أصبحت أصحو وحدى مبكرا، وألبس المريلة وحدى، وأعلق الحقيبة الجلدية على ظهرى، وأمشى وحدى فى الحوارى الضيقة حتى أغادر درب الجماميز وأصل إلى شارع بورسعيد حيث توجد المدرسة، فأدخل الحوش فرحا بزئيــط العيــال ونــداوة الصبح على وجوههم، لا ينغصنى سوى مدرس الألعاب الذى لابد أن يفتش علينا فى الطابور ممسكا بالخيزرانة الرفيعة المربربة مثل الكرباج، ولابد أن يضربنا جميعا لأن أظافرنا طويلة وأيدينا متسخة وأحذيتنا مبرطشة كالحة ومرايلنا مترهلة غبراء ممزقة من الشد والتناحر واللعب الخشن؛ فنولول ثم نصمت فى الحال بصرخته نقطع خنساً. ينتهى مدرس الألعاب من الرواح والمجىء وتطويح الخيزرانة. نردد نشيد «بلادى بلادى» بأصوات مسرسعة؛ نحيى العلم؛ نمضى صفوفا إلى الفصول؛ ليبدأ الضرب بحد المسطرة على ظهور الأيدى لأسباب لا تنتهى؛ فإذا ما ضرب جرس الفسحة اندفعنا إلى الحوش كالقرود الهائجة؛ نجىء بالكرة؛ وهات يا لعب.

نطت الكرة ذات يوم فوق السور؛ هبطت فى حوش المبنى المجاور. اغتظنا؛ صرنا ننظر لبعضنا فى حيرة لا ندرى ماذا نفعل؛ فلم نكن نعرف أى شىء عن المبنى المجاور الذى لا يفصله عن مدرستنا غير هذا السور؛ فشكل المبنى من الخارج وهو مغلق البوابة على الدوام، ومنظر الحديقة التى تطل أشجارها فوق أسواره، والبوابة الداخلية العالية التى تطل على الحديقة من الداخل؛ كل ذلك كان يجعلنا نظن أن المبنى قصر رجل غنى من باشوات زمان.

كان لابد أن نجىء بالكرة. نظر العيال نحوى لأن شوطتى القوية هى التى طيّرت الكرة إلى المبنى المجاور. رفعنى العيال على أكتافهم. تسلقت السور؛ رميت بنفسى فى حوش المبنى.

يا له من منظر جميل كأنه الجنة: الأرض أحواض زهور بينها طرق واسعة منسقة؛ فى الوسط نافورة على شكل تمثال لامرأة جميلة تبخ الماء من فمها وأصابعها ورأسها؛ الأشجار تبدو كأن الحلاق نسق لها شعرها. أطفال كثار، صبيان وبنات؛ يشبهون الزهور، كلهم بيض وحمر، شكلهم جميل، شعورهم مسبسبة لامعة، ثيابهم جديدة ملونة بألوان زاهية مفرحة؛ لا يصيحون ولا يتعاركون، يقفون فى مجموعات يتكلمون ويضحكون، كلهم حلوين، كاللعب المعروضة فى الفتارين الكبيرة. هى إذن مدرسة كمدرستنا ولها جرس!

وقفت تحت الشجرة بين أحواض الزهور مبهورا أتفرج على العيال وهم يرطنون بكلام لا أفهمه؛ أتطلع إلى الجدران الحمراء كالورد، والأراجيح، والروافع، والخرائط واللوحات الملونة على الحوائط. قلت لنفسى: هل يعقل أن الله الذى خلق عيال مدرستنا هو الذى خلقهم أيضا؟! زعلت من

أبى: كيف لم يأت بى إلى هذه المدرسة الجميلة؟! كرهت مدرستنا. قلت لنفسى: لابد أن أبى لم يعرف هذه المدرسة، وما دمت أنا قد عرفتها فقد اخترتها وسأبقى فيها.

صار العيال ينظرون لى بخوف واستغراب ودهشة. ضرب الجرس؛ حتى جرسهم مختلف عن جرسنا إذ يشبه جرس التليفون الحديث. مضى العيال إلى الفصول فمضيت معهم؛ دخلت أول فصل؛ جلست على أول مكتب بجوار ولد قصير طيب لكنه كان يتزحزح بعيدا باشمئزاز، ثم سمعت همسات: المسْ! المسْ. ثم دخلت سيدة أنيقة كالخواجات. وقف العيال فوقفت معهَم. أشَارت بيدها فجلس العيال. شكل المسْ جميل جدا، ووجهها مبتسم مريح للنفس على عكس مدرسى مدرَستنا ذوى الوجوه المتجهمة المكشرة المكلبظة والصوت الخشن. قلت لنفسى: لن أمشى من هذه المدرسة فأنا أحببتها وعيالها وفصولها وحوشها.

رائحة العيال كلهم عطرة كرائحة المسْ. أما أنا فرائحة عرقى الزنخة تطلع من عبى. لابد أن المسْ شمت رائحَتى؛ صارت تنظر حواليها وقد اقشعر أنفهَا. وقع بصرهاَ علىّ؛ فاتسعت عيناها اتساعا أخافنى؛ صارت تقترب منى وهى فى غاية من الدهشة والخوف كأنها تقترب من فأر أو ثعبان تسلل إلى الفصل. حدثت ربكة بين العيال كلهم؛ صاروا يشرئبون بأعناقهم ويشيرون إلىّ بأصابع صغيرة بيضاء منغزة.

بطرفى أصبعيها أمسكتنى المس من كتف المريلة؛ سحبتنى خارج المكتب. العيال كلهم يزأطون يرطنون يضحكون، وأنا واقف تحت السبورة تتهدل المريلة على كتفى؛ لا أستطيع الهرب من عيونهم الواسعة الصافية التى تنظر لى باستغراب وفضول تتوقف على وجهى الصدئ وشعرى

المنكوش ومريلتى الوسخة والبرطوشة المتفتقة عن جورب فى لون الأرض. قالت المِسْ:

ـ «إيه ده؟! إيه اللى جابك هنا؟! دخلت هنا إزاى؟! هه؟! انطق!! جاى تعمل إيه هنا؟! تعال!!».

سحبتنى من كتف المريلة بأطراف أصابعها جاعلة بينى وبينها مسافة كبيرة. دفعتنى خارج الفصل. نادت: «يا محمود أفندى»؛ جاء أفندى أنظف من مدرسى مدرستنا؛ وقف ينظر لى فى اشمئزاز وحيرة. قالت المس:

ـ «الولد ده دخل هنا إزاى؟! دى بقت فوضى!! شوف إيه حكايته؟!».

أطبق الأفندى على معصمى بقوة؛ سحبنى. مشيت تحت ساقيه أرتعش. مررنا على أحواض الزهور، والنافورة. خرجنا من البوابة. مضى بى إلى بوابة مدرستنا؛ طرق عليها بقبضته فى غيظ. ووربت البوابة؛ أطل منها وجه فرّاشنا.

ـ «خير يا محمود بك؟!».

دفعنى محمود بك إلى فتحة البوابة:

ـ «شوف البلطجى الصغير ده دخل عندنا إزاى؟! لقيناه قاعد وسط العيال فى الفصل! عمل حالة رعب!! لمّوا عيالكم!! ما ينفعش كده!!».

أمسكنى الفرّاش من قفاى بغلظة:

ـ «لا مؤاخذة يا محمود بك! أيوه . . الولد ده تبعنا!!» .

ثم أغلق البوابة . مضى بى إلى مدرس الألعاب فى حجرته الضيقة؛ أخبره بكل كلمة قالها محمود أفندى ، وأضاف من عنده بغيظ :

ـ «العيال دى لازم تتربى!! حَقَّه كله إلا نط السور! ده اللى كان ناقص!!» .

أمره مدرس الألعاب أن يأتيه بالفلقة . أمره أن يعلقنى فيها . طرحنى الفراش على ظهرى ، كتَّف ساقىّ ثم أدخلهما فى الحبل وكسكر عليهما؛ نادى زميله الصغير؛ أمسك كل منهما بطرف من طرفى الفلقة؛ رفعاها . صارت رأسى واقفة فوق البلاط وساقاى معلقتان فى الهواء؛ والخيزرانة تنهال على قدمىَّ كالمطر . النار تسرى فى جسدى؛ أصرخ؛ أنتفض؛ تكاد رأسى تتفتت . جاء الناظر وبعض المدرسين، سألوا عن السبب : «عمل إيه؟!» . قال لاهثا وهو منهمك فى ضربى :

ـ «نط السور على المدرسة الأجنبية عمل حالة ذعر فيها!!» .

فإذا بهم جميعا يقولون :

ـ «عمله سوده! اضربه عشان يحرم! ده يستاهل قطم رقبته!! عيال آخر زمن!!» .

أفقت من الإغماء فوجدت نفسى فى منزلنا والمياه تغرق رأسى ورائحة النوشادر فى خياشيمى؛ وأبى ينظر لى فى غيظ ودهشة قائلا :

ـ «تستاهل! أصل أنا ما عرفتش أربيك!!» .

الخسوف

فاجأنى الكلب ضخما كالحصان فتوة وشراسة. راح - واقفا على خلفيتيه - يرتمى فى حضنى يحاول معانقتى بأماميتيه وقد تدلى لسانه واقتربت أنيابه المخيفة من وجهى. نشفت الدماء فى عروقى، تجمدت أوصالى، عجزت حتى عن الصراخ، غبت عن الوعى لبرهة وجيزة كان لها الفضل فى عدول الكلب عن هجمته. أفقت على أصداء صيحة من صوت عريض رخيم فيه دمامة أرستقراطية مستعارة: «لورد!». كانت الصيحة آمرة رادعة. ما إن هبط الكلب مخلّصا كتفى من قدميه حتى كدت أتهاوى على ظهرى من قوة الدفعة التى هزتنى وهو ينزل عن صدرى ويلف مهرولاً حوالىَّ وصوت خربشة حوافره فى الأرض يبعثر أنفاسى.

لحق بى عبود بك، أمسك يدى بيمناه مصافحا، وبيسراه أخذ يربت كتفى فى دماثة وهو يبتسم دافعا بى إلى ردهة الاستقبال العريضة الفخمة:

- «لا تخف يا رجل! إنه كلب متحضر جدا ومن أصل ألمانى ينتسب إلى أرقى أنواع الكلاب الملوكية! لا تغرنك ضخامته فإنه طيب القلب! لقد كان يرحب بك! على فكرة، لقد فطن إلى أنك من أقاربى! لابد أنه شمَّ ريحتى فيك فتودد إليك! ولو استغربك لمزق لحمك فى الحال دون أن أفلح فى منعه! تعال اجلس ها هنا بعيدا عن جهاز

التكيـيف لأنك عـرقـان! مـا كل هذا العـرق يا رجل؟! أليس عندك سيارة؟».

ـ «سيارة؟!».

كدت أستطرد قائلا إننى لا أملك حتى أجرة الباص، وأننى جئته من عشش بولاق الدكرور إلى شارع الجبلاية فى الزمـالك سيراً على قدمىَّ تعبيرا عن شدة اشتياقى إليه؛ لكننى بكبرياء مهيض انبريت أتحدث عن زحام القاهرة وبلطجة سائقى سيارات الأجرة. يبدو أننى ثرثرت كثيرا فى محـاولة فـاشلة ومكشـوفة لإقناعـه بأننى رافض لشراء سـيارة بسـبب هذا الزحـام؛ إذ إن عـبود بك شـوح فى وجـهى بذراعه الأنيقـة بكُم الروب دى شامبر الفخم:

ـ «يا رجل، فضّك من هذه الخزعبلات وشف نفسك! من لا يملك سيارة فى هذا البلد تتمرغ كرامته فى الطين ولا يستطيع إنجاز أى عمل!».

دهمنى شعور بالبواخ والسخف والخيبة؛ إذ فطنت إلى أن ما ثرثرت به من ادعاءات يتناقض تماما مع هدفى الشخصى من هذه الزيارة.

جاء خادم أسود يحمل صينية فضية عليهـا أكواب من عصير مجهـول الهـوية، مع أطبـاق حـافلة بقطع الحلوى شهـيـة الشكـل والرائحـة. وضع الصينية أمامى وانصرف. قال عبود بك فى أريحية صافية:

ـ «تفضل!».

عندئذ ظهر الكلب لورد قـادما من الشرفة البـعيدة آخـذا طريقه نحوى مباشرة. دبت الرعشة فى أوصالى حين وضع أماميتيه على ركبتىَّ ومدَّ بوزه كأنه يريد أن يقبّلنى فى فمى. تراجعت قليلا فى ارتباك. ابتسم عبود بك:

ـ «لا تخف! لا تخف! خوفك يستعديه عليك!».

أيست. بشجاعة مصطنعة مددت ذراعى، رحت أملس بكفى على رقبة الكلب. أحسست بأنه يجامل صاحبه بالاستسلام لمداعباتى المرعوشة، إلا أنه ما لبث حتى نزل ماداً بوزه نحو ساقى يتشمم فى شبه سعار. أخيرا تمدد على الأرض لصق قدمى اليمنى؛ مد بوزه إلى قدمى، مدّ لسانه يلعق الحذاء، مدّ يده فوق الجورب وسحبها، تمزق الجورب، خربشتنى أظافره فى الكاحل. كتمت وجعى، كاد القهر يرفع صوتى بالبكاء، هطلت الدموع فى حلقى. رأيت الحرج واضحا على وجه عبود بك؛ وقف صارخا فى الكلب:

ـ «لورد! قليل الأدب! يلا امشى من هنا!».

لطشه على وجهه بأطراف أصابعه. تشبث الكلب بحذائى فى استموات. أمسكه عبود بك من رقبته، سحبه بالقوة، مضى به إلى الداخل واختفيا معا، فساد الصمت والسكون إلا من صوت فحيح الكلب..

عبود بك من بلدتنا. كان زميلى فى المدرسة سنة بسنة حتى الشهادة الابتدائية، إذ ترك هو الدراسة والتحق بشادر الأخشاب يساعد والده تاجر الخشب، فيما أكملت أنا دراستى حتى حصلت على ليسانس آداب قسم الفلسفة؛ وكانت حرفة الأدب قد أدركتنى مبكرا، فما إن تخرجت حتى التحقت بالعمل موظفا فنيا فى هيئة قصور الثقافة بمرتب ضئيل يقبضه مطعم فول التابعى وجرسون قهوة الزهرة وصاحب الحجرة التى أسكنها فى فم الخليج؛ وخلال سنوات طويلة كنت أنشر فى جميع الصحف السيارة ـ بالمجان مع الأسف ـ قصصا ومقالات وتعقيبات على معارك وهمية صاخبة جعلت الناس فى بلدتنا يتصورون أننى صرت من كبار

الكُتّاب أسكن فى الزمالك وأركب سيارة فارهة؛ وحينما التقيت عبود بك صدفة فى أحد العروض المسرحية بالمسرح القومى بعد خمسة وعشرين عاما من فراقنا هو الذى عرفنى وقال إن شكلى لم يتغير قط؛ وبرغم تواضع مظهرى السنكوح وفخامة مظهره الأبهة فقد عاملنى بحفاوة كبيرة جدا؛ قدمنى لزوجه وعياله بلقب بك؛ أفاض فى وصفى بأننى الكاتب الكبير الشهير الذى تفخر به قريتنا؛ ثم عزمنى فى الاستراحة على فنجان من القهوة مع حاجة ساقعة وسجائر مجهولة الماركة بالنسبة لى؛ حكى لى طرفا من قصة حياته، فعرفت أنه استقل عن أبيه وأقام فى الإسكندرية متخصصا فى توريد الأخشاب لمصانع الكبريت؛ فلما جاء عصر الانفتاح الاقتصادى نزل سوق الاستيراد والتصدير فأكرمه الله من وسع، فانتقل إلى القاهرة إذ هو الآن عضو بمجلس الشعب عن دائرة بلدتنا، كما أن مكتبه ومقارّ شركاته ها هنا، وقد اشترى هذه الڤيلا من ورثة سباهى باشا وقام بتطويرها وتجهيزها بكل التقنيات الحديثة؛ ثم أعطانى أرقام جميع هواتفه وأعطيته رقم الهيئة؛ ألحّ علىّ أن أبادر بزيارته فى الڤيلا بحق العيش والملح والزمالة القديمة. أصبحت أهاتفه من حين لآخر، فلا أجد منه إلا مزيدا من الحفاوة والاحترام البالغ حدّ التبجيل، وفى كل مهاتفة يصر على تحديد موعد للزيارة. . إلى أن نزلت عند رغبته أخيرا وجئت إليه. الواقع أن زيارتى هذه لم تكن خالصة لوجه الزيارة فحسب؛ إنما تعشمت أن أفاتحه فى أمر يخصنى بلباقة تحفظ لى كبريائى وفى نفس الوقت تحفزه على معاونتى، وهو أن يلحقنى بعمل إضافى فى مكتبه مثلا أو فى إحدى شركاته؛ ومن جانبى لم يكن لدىَّ ثمة مانع على الإطلاق فى أن أكون سكرتيراً خاصاً له؛ فمن المؤكد أن وظيفة كهذه سيكون راتبها مجزيا. .

ها هو ذا يعود بوجه بشوش متبخترا كالطاووس:

ـ «ما هذا يا رجل، ألم تشرب العصير بعد؟ إنه عصير اللوز! كُلْ من هذه الحلوى السورية! القهوة آتية حالا!».

جلس بجواري وربت ركبتي في ترحيب وحميمية، ثم قدم لي سيجارة وأشعلها بالولاعة الذهبية. تأهبت لمفاتحته في الموضوع، لكن الكلب عاد مهرولا، فأربكني. استقر بجوار قدمي اليسرى هذه المرة، راح يشمشم في الحذاء، يهبش الجورب؛ مزقه. انفجر عبود بك في ضحك عميق صامت؛ صفق كفا على كف:

ـ «حاجة عجيبة فعلا والله! ماذا يريد من قدميك؟!».

أدركت السر في الحال: إن الجورب في قدمي منذ أسبوع كامل لم يتغير ولم أغسله؛ بل إن الملابس التي على جسدي كلها لم أخلعها منذ أسبوع قضيته سائرا على قدميّ في شوارع القاهرة وضواحيها مع شلة من المحبطين على قهوة الزهرة؛ ننام ـ بهدومنا وأحذيتنا ـ كل ليلة في مكان بعيد لدى صديق من زملاء الحرفة نجري وراء شهوة الكلام وتلفيق الندوات التي نمدح فيها بعضنا البعض. أما الآن وقد تمزق جوربي فإن رائحة النتن قد صعدت إلى أنفي زاعقة كرائحة الجيفة. غرقت في عرق الخجل والشعور بالضآلة؛ تمنيت أن تنشق الأرض وتبلعني؛ صرت أدخن في شراهة ونهم، وقد هوى قلبي في قدمي حيث أطبق الكلب بفكيه على لسان حذائي وصار يشده بقوة وشراسة حتى تصورت أنه على وشك الجنون. رحت أقاوم لعلني أفلح في نزع قدمي من بين أسنانه؛ إلا أن عبود بك عالج انفراط ضحكه بلكمة غيظ شيعها للكلب في فكيه. زمجر الكلب بعدوانية؛ فصرخ فيه يأمره بالانصراف، ثم وقف ليهدئ من ثورته الواضحة في عينيه المصبوغتين بلون الدم. وقفت بدوري:

ـ «طب اسمح لى! ورائى مشوار مهم جدا!».

سحبت يده لأصافحها. لم أنتظر أن يسمح لى بل توجهت مباشرة إلى الباب ففتحته:

ـ «سلام يا جميل!».

وخرجت ساحبا الباب ورائى. هرولت نازلاً سلم الڤيلا فى اضطراب وانكسار. وكانت الأرض الزملكاوية تعلو وتهبط فى ناظرىّ، وكل المرئيات جميعها ذات لون أصفر شاحب.

مشهد جانبى

خلِّ بالك من نفسك يا ولدى، احذر أن يستهزئ بك الناس بما أنك طفل صغير لا راح ولا جاء بعد.. كن رجلا وإن كنت كعقلة الأصبع، الرجولة ليست بالطول ولا بالعرض بل بالعقل والكلام الموزون والسلوك الحسن والجدعنة والجراءة فى الحق.. لعلك تذكر ما أوصيتك به من قبل مرارا وتكرارا، لكن يستحسن أن أعيده عليك الآن وأنت متوكل على الله كى تضعه حلقا فى أذنيك كلمة كلمة.. شف يا حبة عينى.. ستمشى على قدميك من هنا لمحطة البكاتوش مسافة قصيرة لا تزيد عن ستة كيلومترات.. من محطة البكاتوش تركب القطار الآتى من قلين.. سيفوت القطار على محطتين: شباس الشهداء وسنهور.. المحطة الثالثة هى دسوق؛ فيها تنزل من القطار؛ تمشى مع الناس على الرصيف، تطلع السلم العالى معهم؛ فى آخر الممشى الشبيه بالكوبرى تنزل؛ تلقى بوابة حديدية يقف أمامها واحد أفندى فى يده كماشة؛ لا تخف منه حين يعترض طريقك؛ أعطه التذكرة التى قطعها لك الكمسارى فى القطار فيتركك تخرج..

بمجرد خروجك من البوابة تتجه إلى شباك قطع التذاكر المجاور لها على اليسار؛ تسأل ناظر المحطة القاعد خلف الشباك: «متى يجيء القطار الذاهب إلى فوة؟»؛ يقول لك: «بعد قليل»؛ أعطه القروش الثلاثة وقل

له: «هات نصف تذكرة لفوة»؛ يعطيك ورقة خضراء سميكة طول أصبعك مبططة؛ ضعها فى جيبك واحرص عليها مثل عينيك؛ احذر أن تشد المنديل من جيبك فتوقعها فى غفلة منك فتكون الكارثة.. عد إلى البوابة التى كنت قد خرجت منها؛ قدم التذكرة للأفندى ذى البدلة الصفراء الواقف بباب السلم.. سيأخذها منك يعضها بالكماشة ويردها إليك؛ دُسَّها فى جيبك وكل حين تتحسسها لتطمئن على وجودها؛ واحذر أن يتحكك بك أحد أو تتحكك أنت بأحد.. تصعد السلم وتمشى فوق الكوبرى وتنزل على الرصيف الثانى المقابل للرصيف الذى نزلت عليه منذ قليل.

القطار الثانى الذى ستركبه سيجىء من عكس السكة التى جاء منها القطار الأول.. اسأل قبل أن تركب: «هل هذا هو القطار الذاهب إلى فوة؟»؛ فإن قيل لك: «نعم» تركب؛ احذر أن تركب والقطار ماش؛ احذر أن تنحشر فى زحام المندفعين إلى باب القطار؛ الحق بالباب الذى لا زحام عليه فإن لم تجد فانتظر حتى يركب المتعجلون وأمسك بحديد الباب واصعد على مهلك وانظر جيدا قبل أن تضع قدمك؛ ضعها بهدوء حتى لا تنزلق فى الفراغ بين الرصيف والقطار.. اختر كرسيا بعيدا عن الباب وعن الشباك، فإن لم تجد كرسيا خاليا فقف وسط العربة بين صفوف الكراسى؛ لا تأمن لمن ينظر لك فى نعومة ويسألك: «ما اسمك يا شاطر؟ من أى بلد أنت يا شاطر؟ فى أى محطة ستنزل يا شاطر؟»؛ أجبه بكل رجولة ولكن لا تأمن له..

حين يمر الكمسارى ببدلته الشبيهة ببدلة العسكرى قدم له التذكرة؛ سيعضها بالكماشة ويعيدها إليك؛ ضعها فى سيالتك بحرص لأن المفتش قد يمر بعد قليل ويطلب رؤيتها..

ضع عينك فى وسط رأسك عند كل محطة وإلا فاتتك المحطة فيطوقك الكمسارى بفلوس مضاعفة ويسلمك للعسكر لأنك ليس معك ثمن التطويق . .

تبصّ من الشباك حينما يهدئ القطار سرعته وهو داخل إلى المحطة ، لتقرأ اللافتة التى ستراها تجرى أمامك على الرصيف بسرعة . . يعنى لازم أن تقرأها بسرعة . . ستقرأ على اللافتات محطات : قبريط ، محلة مالك ، السلمية ، يعنى ثلاث محطات . . خلٍّ بالك . . الرابعة هى فوة ، عندها تنزل . . ستجد رصيفا بلا سلم كدسوق ، بلا بوابة ، منه للخلاء على طول . . امض مع الناس حيث يتجهون بحذاء النهر نحو المبانى العالية ذات القباب والمآذن الكثيرة تملأ سماءها . .

تواصل المشى فى الطريق المرصوف الواسع على جانبيه الأشجار والمقابر . . لا شأن لك بهذه ولا بتلك ، ولكن خلٍّ بالك من الأتومبيلات التى تجرى فى هذا الطريق بسرعة . .

أول حَوْدَة على اليمين تدخلها تجد شارعا طويلا عريضا كله دكاكين وجوامع وبيوت عالية ؛ تلزم الجانب الأيمن للشارع ؛ تفوّت أول حارة ، وثانى حارة ؛ فى الثالثة تدخل ، تجد على ناصيتها دكان بقالة مكتوب على واجهته اسم صاحبه : محمدى الشبيه . .

ادخل الدكان ، قل : «سلام عليكم» ، يرد عليك السلام أو لا يرد هو حر ، فالمهم أنك عملت الواجب . . قل للبقال : «من فضلك يا عم محمدى أين يوجد بيت أبو شكرى؟» ؛ إن قال لك : «من تكون بالنسبة له؟» ؛ قل له : «أنا ابن بنت زوجته» ؛ سيقول لك : «هو رابع بيت على اليمين وأنت داخل» . . لازم أن تسأله . . خلٍّ بالك ؛ لا ليدلك على البيت

فها أنت ذا قد عرفت وصفه؛ وإنما ليقول لك إن كانت ستك فى البيت أم ذهبت إلى سوق الخضار تتسوق الأكل؟ فإن كانت فى السوق فإنه يبقيك عنده حتى تجيء هى وتمر عليه فى طريقها لتأخذ أصناف البقالة اللازمة لها . . فى البيت ـ مع ستك ـ يسكن ابن زوجها الجزماتى بزوجته وأطفاله وأخته بزوجها تاجر النحاس القديم وأطفالهما، لكنهم جميعا فى الطابق الثانى للبيت، فإن أنت ذهبت إلى البيت وستك غير موجودة فيه ستدعوك إحدى المرأتين للانتظار عندها، وحينئذ ستجرك فى الكلام حتى تعرف منك لماذا جئت وماذا تريد من ستك؟ ستلفك وتطويك ـ فكلتاهما أروية نابها زارق ـ ولن تهدأ حتى تعرف كل شيء عن أحوالنا فى البلد، وعند اللزوم تعاير ستك بنا، فالأحسن ألا تذهب إلى البيت إلا وستك فيه . .

ستجد ستك فى البيت وحدها لأن زوجها خادم مسجد سيدى أبو النجاة المبنى فى قلب النهر يقضى النهار كله أمام المسجد يشتغل فى صنعته الأصلية كنجار متخصص فى صنع الضُّبَبِ الخشبية التى نغلق بها الأبواب . .

ستك سيطلع عليها البلاء بمجرد رؤيتك؛ طبعا؛ ستظن أن كارثة ألمت بنا جميعا ـ طمئنها فى الحال؛ قل لها إننا جميعا بخير والحمد لله لا ينقصنا إلا رؤيتها . . ستندهش من مجيئك فى القطار وحدك، ستسألك: «لماذا جئت يا حبيبى وحدك، هل أنت طفشان؟»؛ قل لها: «أمى تسلم عليك وتدعو الله أن يسترك ولا يحوجك لمخلوق»؛ قل لها: «أمى تقول لك إننى نجحت فى اختبار مدرسة البندر وسألتحق بها مع أولاد الناس الطيبين كما كنت تحلمين». . ستفرح طبعا وربما تزغرد؛ قل لها: «مدرسة البندر تطلب منى بدلة وطربوشا وحذاء وأبى يدبر أكلنا بطلوع الروح، فخذينى يا ستى لسوق الكانتو واشترى لى البدلة والطربوش والحذاء بأى شكل» . .

ستشوح فى وجهك بحسرة قائلة: «منين؟ هو انتو مخليين ورايا حاجه؟ اللى بتعمله النملة فى سنة ياخده الجمل فى خفه ويطير!»؛ وربما بكت وهمت بشق ثوبها، لكن اطمئن، هى لن تتركك ترجع إلا مجبور الخاطر. . ستأخذك إلى سوق الكانتو وتشترى لك البدلة والطربوش والقميص الأفرنجى مع الجورب. . ستفوت على قريبها عبد الفتاح الطنطاوى العتقى الذى يرتق الأحذية القديمة ويلمعها ويبيعها بثمن رخيص يقدر عليه الفقراء أمثالنا. . أمثالنا يا ولدى لا يصح أن يلبسوا الجديد لغلو ثمنه، وإذن فنصف العمى خير من العمى كله، القديم الملبوس سابقا لا غبار عليه ما دام متينا. .

بعد أن تشترى لك طلباتك صف لها ما نحن فيه لعلها تعطيك كويين ثلاثة من الأرز الأبيض وبرطمانا من السمن وحفنتين من الفاصوليا الناشفة. . أنا متأكدة أنها سوف تفعل. . ولابد أنها ستغمزك بعشرة قروش لكى تدفع منها ثمن تذكرة القطار وأنت عائد. . الباقى عليك أن تعطيه لى بمجرد عودتك لأرد القروش التى استلفتها لك الآن ثمنا لتذكرة القطار. . ربنا معك يا ولدى. . تروح وتجىء بالسلامة يا حبة عينى.

جـدول المغـادرة

(١)

ترتب أمي سلة الزوادة ترتيبا جيدا محكما: تفرش في قعرها رغيفين من أرغفة المطرحة؛ ترص كومة القراقيش والقرَص؛ تحشر بينها لفة من ورق الصحف تحتوى على خمس قطع من الجبن القديم الأصفر، فوقها برام من الفخار ملآن بالأرز المعمر باللحم المدسوس في الفرن، لكي أتعشى به عند وصولي إلى المدينة. ترص فوق ذلك كله شقائق العيش المخبوز لتوه؛ تدفس بينها ثيابي التي تم غسلها بالأمس فور دخولي الدار. تفرد فوق السلة رقعة من ثوب قديم. بالمسلة والدوبارة تخيط أطراف الرقعة في حافة السلة الدائرية حتى تضمن أن قرقوشة واحدة لن تتسرب منها.

نجلس في انتظار أبي، الذي عليه أن يعطيني ربع الجنيه المعتاد كي أدفع منه ثلاثة قروش ثمن تذكرة القطار إلى مدينة دمنهور، وقرشا لحمال سيتكفل بحمل الأسبتة - لي ولزملائي - من محطة السكة الحديد إلى حيث نسكن في حي كوبري إفلاقة في حجرة ظلماء تحت سلم بيت أم عزت الحربابة. يتبقى من ربع الجنيه واحد وعشرون قرشا يتعين عليَّ أن أشترى بها غموسا لمدة جمعتين، وأنفق منها على كل ما أحتاجه من كراريس وأقلام ومساطر وألوان وملخصات.

أبى ـ كعادته دائما ـ يخرج من صلاة الجمعة فيختفى تماما. ينطلق إخوتى الصغار يسألون عنه فى الدكاكين، وفى دور أخوالنا وأعمامنا وصحابنا. لكنهم فى النهاية يعودون من غيره.

تكون أمى قد طرحت ذيل جلبابها عن مؤخرتها وابترشت الأرض بحذاء باب الشارع، واضعة يدها على خدها، تهرب بعينيها من عينى تطلق الزفرات؛ ويبدو عليها كأنها تعرف أين يختبئ أبى وأنها واثقة من مجيئه فى اللحظة الحاسمة.

أرقب شمس الظهيرة وهى تشحب صاعدة أعلى الجدار المواجه لباب المندرة. أقول لنفسى ضائقا: فى كل مرة يختفى فلا يظهر إلا قرب موعد القطار. وأقول لأمى فى أسى:

ـ «يعنى عاجبك التأخير ده؟!».

بلهجة محايدة تقول:

ـ «طول بالك يا ابنى! حد عارف هو حيجيب الفلوس منين؟! تلاقيه يا حبة عينى داير بيستلف!».

تختفى الشمس من على الحائط؛ أعرف أن عينى انكسرت إلى داخل المندرة التى نجلس فيها. أتململ على الكنبة، أرفع يدى: الحصيرة قد انطبعت عليها بخطوط غائرة. أشعر كأن خطوطا كهذه ـ كثيرة وعميقة ومتشابكة وغامضة ـ تنطبع على لحم قلبى وضلوعى من الداخل؛ وأنها كثيرا ما تؤلمنى؛ وأننى كثيرا ما أتجاهلها بلذة عجيبة لكنها ممضة حارقة ذات ألم من نوع لا يشفى ولا يخففه البكاء.

تتناهى إلى سمعى طرقعات الشبشب، أميز فيها خطو أبى. ثم أراه يدخل المندرة مهرولا، واضعا يده فى سيالته، رافعا بها ذيل الجلباب عن روث الأرض كى يظل نظيفا يؤدى به بقية فرائض اليوم. يقول كأننى كنت قد أرسلته فى مشوار لحسابى:

ـ «أنا جيت اهه!».

ويُخرج يده، يمدها نحوى مطبقة. آخذ ربع الجنيه؛ أفرده لتراه أمى. أتلكأ ـ مثل كل مرة ـ فى طيّه ووضعه فى جيبى؛ لعل أبى يرق ويعطينى شلنا علاوة أظنها واجبة بعد ثلاث سنين فى الغربة على نفس المنوال. لكنه ـ أبدا ـ لا يفعل.

تصيح أمى من العتبة:

ـ «حُطّ الفلوس بين الجلد واللحم!».

أنهض واقفا، أسلم على أبى. يقول لى:

ـ «خلى عينك فى وسط راسك! متفضحناش فى البلد!».

أسلم على أمى. تقول لى:

ـ «خلى بالك من السكة! امشِ جنب الحيط وفتح عينك للحرامية وسط الزحمة ولولاد البندر البايظين!».

تتحامل على ركبتيها واقفة. تغمزنى ببضعة قروش فضية؛ تهمس فى فحيح:

ـ «عشان تركب بيها القطر ومحدش يشوف الربع جنيه وانت بتفكه!

متطلعوش من جيبك قدام حد! اعمل إن مماكش غير الخمسة ساغ دول!».

أعرف أنها باعت بهذه القروش بيضا على مدى الأيام الفائتة؛ وأنها حرمت بذلك إخوتى من أكل البيض.

(٢)

تسبقنى أختى فتحية إلى الطريق الزراعى حاملة السلة على رأسها. تتلعبط كالبلطية الثمينة. يخجلنى ذلك؛ أهم بضربها ليكف جسدها عن هذا العرى المستتر؛ لكننى مع ذلك أشعر بكثير من الزهو لأن دخولى التعليم قد أصبح يرشحها للزواج من أحد أبناء علية القوم ذوى المهابة والاحترام. أتلكأ خلفها قليلا قليلا حتى تبتعد منسلة من الشارع العمومى إلى الدرب الموصل للطريق الزراعى الممتد حتى محطة البكاتوش البعيدة عن بلدتنا مسيرة ساعة على الأقدام ونصف ساعة بالركوبة.

أمر على مجموعة من الناس واقفين أو جالسين. أقول:

- «سلامو عليكم!».

ثم أهدئ من خطوى لكى أسلم عليهم واحدا واحدا وأقول:

- «أشوف وشكم بخير!».

يقولون فى حماسة وإعجاب:

- «إتجدعن! ربنا معاك! إن شاء الله من الناجحين!».

يقول الأولاد الذين لا أعنى بالسلام عليهم:

ـ «يا ما جاب الغراب لامه!».

تقول النسوة اللاتى يروننى أمر بجوارهن متحاشيا النظر إليهن تأدبا:

ـ «ياحلاوة يا أختى! ربنا ينجحه! دى أمه غلبانه ومالهاش حد!».

تكون البنت رئيفة قد برزت بجسدها من مسطاح المصرف. تسند البلاص مستوقفة أختى فتحية؛ لترينى أنها كانت فى انتظارى متعللة بالوقوف مع أختى. تقول بصوت عال أحب بحته:

ـ «مع السلامة يا فتحية! ما تبقيش تغيبى يابت!».

ترد أختى فتحية نيابة عنى وقد تباعدت:

ـ «اللقا نصيب يا رئيفة! يا ترى من يعيش!».

أكتفى بالنظر إلى رئيفة من تحت لتحت. أبتسم وأدير وجهى بسرعة قبل أن تلحظنى عين مجهول كامن فى الأفق.

(٣)

محطة البكاتوش هى محطتنا. ليس لها ناظر ولا شباك لقطع التذاكر: مجرد رصيف واحد عليه لافتة كبيرة على حاملين، وكشك صغير يجلس فيه عبد العزيز مسلّم، ذو الأسنان الفضية والذى عليه أن يغلق المزلقان بالجنزير عند اقتراب القطار، ويفتحه عند ابتعاده. يعرفنا جميعا بالاسم والأب والعنوان والسنة الدراسية؛ يتابع أخبارنا، لا يكاد يصدق أننا أبناء الفلاحين والأجرية والأنفار والتملية قد صرنا بالفعل أفندية نتعلم فى

البنادر مع أولاد الذوات. يبشرنا بالسقوط مقدما لدى أية مشادة بيننا وبينه حول أى أمر من الأمور.

تقترب المحطة؛ هى دائما هكذا؛ تبدو خالية ومخيفة؛ تبدو برصيفها وسيمافورها ولافتتها كأطلال معبد قديم تروح فيه الأشباح وتجيء. إلا أننا اعتدنا أن نحب هذه المحطة وعبد العزيز حتى وهو يتطاول علينا؛ فهو - ممثلا لهذا المكان - البوابة التى توصلنا إلى المدينة حيث تلمع الأضواء والشوارع وحيث - من أجل خاطر عيونها - نعشق دخان ومازوت القاطرات والزيوت والشحوم ورائحة الفلافل الساخنة.

نهجم على أبواب القطار بمجرد دخوله الرصيف، هجمة غوغائية مليئة بالصياح المتوتر المذعور، ننادى بعضنا بعضًا كى نتعاون فى دفع السلال والقفف من باب أو شباك. نرتب السلال فوق الأرفف. يرجنا القطار فجأة، إلى الأمام رجة، وإلى الوراء رجة. ننتبه؛ ننهض واقفين؛ ندفع رءوسنا إلى الشباك نلوح بأيدينا وأصواتنا لمن كانوا يوصلوننا وقد أخذ الرصيف يتراجع بهم. حتى إذا ما اختفى الرصيف عدنا للجلوس مستسلمين للهدير المتباعد بنا وسط الحقول الشاسعة.

الحبال الناعمة

كنت أعرف سلفا أن أبى قد مات منذ خمسة وعشرين عاما عن عمر يناهز السبعين عاما حزنا على وفاة أصغر إخوتى. مع ذلك لم أندهش حين رأيتنى جالسا معه فى مندرة دارنا فى البلد، وعمره لحظتئذ يكاد يتساوى مع عمرى، كلانا فى الستين من العمر تقريبا؛ إلا أننى لا أزال خائفا متوجسا منه كأننى لم أغادر عتبة الطفولة بعد. أمى كانت حاضرة، فى نفس مكانها المعتاد على الدكة المتقاطعة مع الكنبة التى يجلس أبى فوقها باستمرار؛ أمامها وابور الجاز يون ونينه المؤنس الرتيب تحت براد الشاى وقد تصاعدت رائحة غليان الشاى مختلطة برائحة احتراق الجاز. على الدكة المواجهة لكنبة أبى - وهى بدورها متقاطعة مع الدكة الجالسة فوقها أمى - كنت جالسا وبجوارى ستى نفيسة - جدتى لأمى - التى أحبها أكثر من أى شخص آخر فى الدنيا كلها . .

كان من الواضح أننى أشبه بضيف غير مرغوب فيه لا يستحق أى قدر من الحفاوة! وأن حقيبة ما - تخصنى - كانت بجوارى منذ قليل ولكن ستى نفيسة - فيما يبدو - قد نقلتها إلى الداخل كإشارة وحيدة بائسة إلى أننى صاحب بيت وأننى يجب أن أمكث ليلتين أو ثلاثة بعد هذه الغيبة الطويلة جدا حيث من الواضح أننا لم نلتقِ منذ سنوات لا أذكر عددها . .

الجو فيما بدا لى كان متوترا . طائر شرير غير مرئى كان يرفرف بجناحيه فوقنا . لم نكن نرى هذين الجناحين لكن ظلالهما كانت تضفى على قعدتنا ظلاما رغم أننا فى الظهيرة والمندرة مفتوحة الشبابيك على حارتين متقاطعتين إحداهما توصل إلى دار عمتى أم كلثوم والأخرى توصل إلى دار أخوالى التى فيها قاعة لستى نفيسة ورثتها عن جدى لأمى . كذلك كنا نشعر للرفرفة بحفيف ريح باردة رغم أننا فى عز الحر . أبى جعل يشرب الشاى من كوبة صغيرة فيما هو يرمقنى بنظرات جاحظة اعتدت أن أمقتها ومع ذلك أتحداها بالتحديق فيها بعناد واستخفاف ولامبالاة كأننى أريد أن أصرخ فى أبى قائلا بهزء وسخرية : إن نظراتك هذه لم تعد تخيفنى وأنت نفسك لم يعد لك بى أى شأن على الإطلاق . مع ذلك كنت لا أزال خائفا أتوقع حدوث خطر مروع . شعرت أن أمى قد أعطتنى ظهرها ربما لأنها ـ الآن ـ لا تقوى على النظر فى عينى ؛ قد نكست رأسها فى صينية الأكواب تعانى من حرج وحيرة طالما أحسستهما ؛ إذ هى تريد أن تثبت لأبى أنها ملتزمة بتنفيذ أمره بألا تساوينى به فى أى شىء إذ إننى لا أستحق أن أنادده حتى فى كوبة شاى من الدور الأول الثقيل ؛ فالعاطلون أمثالى لا يستحقون اللقمة بله أن ندللهم بشرب الشاى الثقيل أو أن نبش فى وجوههم ؛ فى نفس الوقت تريد أمى أن تعطينى كوبة الشاى التى صبتها بالفعل وأبقتها على الصينية وراحت تختلس النظر لأبى لعلها تلتقط من نظراته لمحة موافقة ولسان حالها يقول : إننا نقيم زردة الشاى هذه ابتهاجا بقدومه بعد غيبة طويلة ، فاعف عنه يا رجل ودعه يشعر بأنه فى داره . إلا أن نظرات أبى كانت متبتة علىّ ، وكنت أقرأ فيها كلاما كثيرا وعتابا وتأنيبا لا حصر له : كيف أكذب عليه وأدّعى النجاح فى الامتحان مع أننى كنت راسبا ؟ ! كيف لم أرحم شقاءه فى تدبير المصروفات والزوادة اللتين أتزود بهما كل

أسبوع فى المدينة التى أتعلم فيها؟! كيف أستندل وأطفش فلا يعرفون عنى أى خبر تاركا إياهم يتقلبون فى النار يتبهدلون فى البحث عنى؟! كيف تواتينى الجرأة على قطع الصلة بهم طوال هذه السنوات كلها فلا أرسل لهم جوابا من أى مكان أتواجد فيه فى غربتى؟! كيف طاوعنى قلبى الجامد على نسيانهم وتجاهل الدور الذى كان من المفروض أن أقوم به فى مساعدته على تربية بقية إخوتى؟! كيف وكيف وكيف؟.. رغم أنه كان يخيل لى أننا قد انتهينا من بحث هذه الأمور وتصفيتها منذ سنوات بعيدة وأنهم جميعا قد اقتنعوا بسلامة موقفى وبأننى لم أكن أستطيع الاتصال بهم نظرا لسوء أحوالى وعدم استقرارى فى أى مكان، وأننى بمجرد استقرارى اتصلت بهم وأنهم قد غفروا لى؛ فكيف يتضح الآن أن شيئا من هذا لم يحدث وأن كل هذه الحبال لاتزال موصولة كحبال الود سواء بسواء كدم الأب الذى يجرى فى عروق الأبناء وأحفاد الأحفاد؟ ها هى ذى تلتف حول عنقى بنعومة حادة كشفرة السكين تكاد تفصل رقبتى عن جسدى. لهذا ـ ربما ـ كنت ضائقا بالقعدة وبأبى وبهم جميعا بل وكارها لنفسى لائما لها على المجىء إلى هنا. ثم رحت أسائل نفسى: متى جئت إلى البلدة وكيف دخلت عليهم الدار وكيف استقبلونى وما الذى دفعنى إلى المجىء ولأى غرض جئت؟! كل ذلك لم يكن واضحا على الإطلاق..

انتبهت إلى أن أبى يتحدث بصوته الجهورى الخشن الذى اعتدت أن أكرهه كرهى للفضيحة بجميع أنواعها على مختلف مستوياتها بل إنه فى نظرى هو الفضيحة بعينها. بمجرد انتباهى لزعيقه تتجمع عشرات العيون تطل من فتحات الشبابيك فى فضول وصداغة وبلاده، وتتنصت من وراء الضُّلَفْ التى تسارع أمى دائما بإغلاقها بوجه شاحب وأطراف مرتعشة.

دائما أبدا أنا الذى أصرخ فى الناس بحقد دفين: «بتتفرجوا على إيه يا ولاد الكلب يا أوساخ» وقد أملأ كوز الماء وأرشه فى وجوههم فلا يتحركون وإن صدرت عنهم وحوحة خفيفة عابرة فوق ابتسامة بلهاء. أكاد أعذرهم على تطفلهم الذبابى لأن أبى حين يرفع صوته الكريه فقل يلا السلامة: كل أسرارنا ستنفضح وسيضحك الناس ملء أشداقهم إذ إن أبى بمجرد ارتفاع صوته ينفلت لسانه تماما فيقول كل ما يخطر على باله شاتما بألفاظ قبيحة تصفنا بأوصاف قذرة وتذكر ما لا يصح ذكره مطلقا.

صوته الآن قد بدأ يرتفع ويهدر بكلام كثير متطاير فوق رءوسنا إلا أننى لم أكن أعرف بالضبط ماذا يقول، لم أتمكن من التقاط كلمة واحدة. كنت فى الحقيقة مشغولا بالنظر حوالى بحثا عمن يتنصتون أو يتفرجون؛ إلا أن الشبابيك لحظتئذ كانت خالية تماما. وكان يبدو كأننى أعرف أن البلدة كلها قد سافرت إلى الخليج العربى لتعمل فى خدمة الكفلاء ولم يبق سوى العجائز الذين لا يقدرون على الحركة؛ مع ذلك كان قد وقر فى ذهنى أننى انتهيت من عبء هذه المشكلة هى الأخرى منذ رحيلى عن البلدة آخر مرة حيث لم يعد يهمنى أن يعرف أهلها أو لا يعرفوا أى شىء عنى؛ رميت طوبتهم منذ سنين ومع ذلك هاأنذا أتوجس خيفة من أن يسمعوا هدير صوت أبى الذى لا يعرف الحياء أو التحفظ..

صار من الواضح لى أننى مشحون ضد أبى، وأننى لن أتورع عن ضربه إذا هو قَلَّ عقله ومد يده علىَّ كما يفعل دائما. كل الضربات الموجعة ـ سواء باليد أو باللسان ـ التى اتضح لى الآن أن جسدى قد احتفظ بها مخبوءة كل هذه السنين البالغة نصف قرن تقريبا قد هاجت مرة واحدة، فغَزَّتنى الألم من كل ناحية فى كل موضع لدرجة أننى لم أجد صراخا يوازى

عمقه فصرت أصدر أصواتا أشبه بالزئير المكتوم. ستى نفيسة هى الوحيدة التى كانت حاسة بى وبآلامى فاعتراها توتر قوى ظاهر، صارت تعتدل فى قعدتها كل هنيهة وتزداد قامتها القصيرة قِصرا من شدة الحزن والعجز عن فعل أى شىء يخفف عنى؛ هاهى ذى تعصر دماغها الدقيق بيدها الدقيقة بحثا عن وسيلة تنهى بها هذا الموقف السخيف السمج دون أن تتسبب فى ازدياد هياج أبى غير المفهوم ذاك..

لحظتئذ جاءنى خاطر الإنقاذ مألوفا ومثيرا للفجيعة فى آن: إنه الرحيل؛ دائما أبدا كان الرحيل هو الحل المنقذ من تفاقم كل تداعيات الفضيحة وارتكاب المعصية. فى الحال فوجئت بحقيبتى قد صارت بجوارى على الدكة لا أعرف كيف اختفت ولا كيف ظهرت. لم تكن حقيبة سفر؛ إنما هى حقيبة أوراق من الجلد الصناعى، لكنها كبيرة تتسع للملفات وكتب وبعض أغراض مؤقتة كقميص وسروال وجورب وغيار داخلى وما أشبه. كانت مفتوحة الفكين، وسوستة الإغلاق متراجعة إلى نهاية الذيل البعيد عن الفكين وقد ظهرت سوستة أخرى تغلق على جيب داخلى واقف بطول الحقيبة وعرضها، لست أذكر ماذا وضعت فيه لكننى أعى جيداً أننى وضعت فى جيب من جيوبها السحرية الخفية بضع عشرات من الجنيهات كنت أزمع إعطاءها لأبى لكننى قررت فى الحال أن أدسها فى يد أمى قبيل الرحيل..

ما كادت فكرة الرحيل تستقر فى قناعتى حتى ساورتنى منغصات داهمة بدت رغم ألفتها أنها لم تكن فى الحسبان؛ إذ بدا وكأننى كنت فى الأصل مقيما ها هنا؛ لذلك رحت أفكر بانشغال كبير فى الأشياء التى يجب أن آخذها معى وهى تنحصر فى مجموعة كتب وأوراق وأقلام عديدة

وكشاكيل مهمة ارتبطت بها كلها وأشعر أن إقامتى فى أى مكان بدونها كأننى فرع بلا جذور وبلا هوية. صرت أنظر إلى حقيبتى مصدوما من صغر حجمها قياسا على الأشياء التى لابد من أخذها معى مع أننى لم أستبن بعد حقيقة ما أنوى أخذه ولا أين يوجد الآن من هذه الدار التى بدت فى نظرى آنئذ عبارة عن هذه المندرة وحجرة وراءها محددة بقاطوع خشبى. ثم فوجئت بأبى وقد هجم علىّ ممسكا فردة القبقاب الخشبى؛ برك فوقى فى اللحظة التى هب فيها كل من ستى نفيسة وأمى وأخ لى لا أدرى من أين جاء ولا من هو على وجه التحديد، حيث نجحوا فى تكتيف أبى والتحجيز بينه وبينى. وكنت مندهشا: كيف أننى لم أقم بدفعه فى قوة لأكومه على الكنبة. أما وقد باغتنى بالهجوم على غير توقع فإن رغبتى فى ضربه تلاشت تماما؛ بل اكتفيت بأن صرت أرقبه فى حقد وهو يدافع الممسكين به فى إصرار، ويضرب الهواء محاولا إصابتى بأى شكل؛ فلما لم يتمكن قذفنى بفردة القبقاب ثم انحط جالسا يلهث ويهدر بالشتائم الغامضة فيما راحت ستى نفيسة تولول مندِدة بالعين الخبيثة الشريرة التى أصابتنا فى مقتل وعششت فى دارنا لا تريد أن تبرحها على خير..

قمت متجها إلى الحجرة الداخلية ومن ورائى ستى نفيسة التى بدا عليها الآن أنها قد سلمت بفكرة رحيلى؛ بل أخذت تساعدنى فى ترتيب حقيبتى وإعادة طىّ السروال بنظام لكى يستوعبه جيب الحقيبة. تركت لها الحقيبة واعتدلت واقفا أستريح من تعب الانحناء، وقد استغرقتنى مشاعر يضطرب لها قلبى بعمق وقوة رغم أنها مشاعر مألوفة لى من كثرة تكرار الرحيل، فيما رحت - بتركيز شديد ومشتت فى آن - أستعيد الأشياء التى يمكننى الاستغناء عنها مضطرا. وبرغم الاضطراب والتعجل كانت سحابة

سوداء ثقيلة تزحف على رأسى فتفرغ على ذهنى بعضا من صفاء؛ فصرت كمن يفكر فى الظلام مغمض العينين ليرى الضوء أكثر وأسطع: حاولت تحديد المكان الذى سألجأ إليه فلم أستطع؛ فارتج قلبى، نشف ريقى، ضاع صوتى، ليس فى ذهنى أى شىء على الإطلاق سوى الرغبة العارمة فى مغادرة هذا المكان حتى بغير حقيبة ولا أغراض؛ لولا أن ستى نفيسة استوقفتنى مذكرة إياى بأن الله مع الصابرين؛ وكانت تعبث بشىء فى عبها، ففهمت أنها تبحث عن منديلها الذى تعقده دائما على حفنة من البرايز الفضية، فضغطت على يدها مقسما بالله أنى غير محتاج إلى عونها المعتاد؛ ولمحت بريق الدمع فى عينيها فانثالت دموعى بغزارة وأنا أريها ما معى من نقود نزولا على إلحاحها؛ ولحظتها كانت لا تزال مقعية وقد حشرت الحقيبة بين فخذيها ضاغطة على جنبيها ليتقابل الفكان. ثم داخلنى شىء من الراحة مع إيقاع حركة السوستة وهى تزحف كقطار البضاعة البطىء والفكان ينغلقان تحتها فى سلاسة وامتثال عجيبين.

سيراميك

أنا أحب صديقى الكاتب الكبير وأقدره. وهو - فى ظنى - يحبنى أيضا ويعتبرنى كاتبا كبيرا.

صديقى الكاتب الكبير هاتَفَنى، زف لى خبر نشر أقصوصتى السابقة بفرح طفولى كبير، وطلب أقصوصة جديدة لينشرها فى نفس الجريدة التى يعمل بها.

صديقى ينقم على الظروف المادية المتدنية التى يعانى منها هو وأنداده من الكتاب الذين أعطوا الكتابة كل شىء ولم يحصلوا منها على أى شىء، وأنا أيضا - أعتقد - أقدر ظروفه ككاتب كبير، أقل منه قامة فى دول أجنبية يمتلكون طائرات خاصة وأرصدة فى البنوك لا تنفد مقابل كتاب واحد؛ فى حين يسكن هو فى حارة فى حى الكيت كات بإمبابة.

صديقى مُقلٌ فى كتابته، لكنه - يقينا - ذو قيمة يعرفها كل من قرأ قليله. وأنا على غزارة ما أكتب يحدونى الشوق دائما لبلوغ ما بلغ من ذيوع صيت بين النقاد من أبناء جيلنا.

صديقى يحب حديث الكتابة، ربما أكثر من حبه لعملية الكتابة نفسها. وأنا عند الحديث فى الفن عاشق مفتون ودنف مُعَنًّى.

يتوهج حديثا ؛ أنتشى استماعا . نتبادل الوهج والانتشاء ساعات طويلة ربما عبر الهاتف ، ربما سيرا على الأقدام فى شوارع القاهرة الكئيبة التى أصبحنا نشعر بأنها قد ضاقت بأمثالنا من الذين لا يزالون يأخذون الأمور على محمل الجد . لحظات الانتشاء والوهج ربما كانت هى الضوء الوحيد المؤنس المبهج فى حياتنا القاحلة . لكن ما أندر هذه اللحظات وما أبعد المسافات بينها .

يُسَرّ بأنْ ينشر لى كل حين . وأفرح بأنه سيقرأ أقصوصتى فتتمخض القراءة عن وهج وانتشاء لمقاومة التصحر الزاحف وإيقافه بعيدا عن حدودنا .

لم يكن بيننا اتفاق على موعد محدد ، لكن جزءاً من الفرحة أن أفاجئه بالحضور على غير موعد .

دخلت عليه مكتبه معتقلاً جناحىَّ المحلقين من الفرح ، طاويا أحدهما على الأقصوصة والآخر على مدخر من مشاعر وخواطر تجمعت خلال الأيام الفائتة .

كان مائلا على مكتبه . أمامه غادة حسناء ممسكة بقلم وأوراق تدون فيها ما يقوله .

انتفض واقفا فى ترحيب شديد يغطى به ارتباكا عظيما وقع فيه بمجرد دخولى ، بعد تردد قليل أعطانى وجهه مستجيبا لمحاولتى تقبيله . ثم قدمنى للآنسة وجلس مستأنفا حديثه معها . هى مراسلة لمجلة أجنبية تجرى حواراً مع عناصر متعددة ممن لهم صلة بالليل ، صناع الليل . ولما كان صديقى كائنا ليليا منذ اشتغاله كموزع للبرقيات فى ليل القاهرة إلى نضوجه المبكر ككاتب يعبر عن وردية الليل فى عمل فنى كبير فإنه صاحب تجربة ليلية ترشحه للتحدث فى هذا الموضوع .

اعتراه التوتر، شحب لونه، تلعثم. شعرت بأنه محرج من وجودى كأننى رقيب على ما سيقول؛ فاعترانى الحرج والإحباط بصورة صادمة. قررت الانصراف فى الحال. بذل محاولات كثيرة لاسترضائى، لكننى كنت قد انطفأت تماما حين لاحظت أنه بدا عليه الترحيب بانصرافى، بل إنه لم يتورع عن التصريح ـ ربما دون أن يدرى ـ بأن أنتظره فى صالة الانتظار.

صار وجودى كعدمه سواء بسواء. بذل جهدا كبيرا ليأتينى بنسخة من العدد المنشورة فيه أقصوصتى السابقة؛ ثم اصطحبنى إلى باب المكتب فى مودة. داخلنى شعور بأنه يود لو يهرب من إكمال الحديث.

سألنى السؤال التقليدى الذى يسألنيه دائما أبدا فى الشهور الأخيرة:

ـ «ما أخبار السيارة؟».

ظننت، كالعادة، أنه أخيرا اقتنع بضرورة فعل ما فعلته أنا منذ عام: شراء محرك مستعمل للسيارة من بور سعيد حيث إن المحرك القديم لم يعد قابلاً للإصلاح بحال. قلت له ـ أغلب الظن لأشجعه:

ـ «تمام!».

لمع فى عينيه بريق طفولى عابث، قال:

ـ «لن أتمكن الآن مع الأسف! قررت أن أركّب لحوائط الحمّام بعض السيراميك! كان لابد من تغيير قعدة المرحاض البلدية بقعدة أفرنجية ذات سلطانية! العملية فتحت! دخلت حتى الآن فى ستمائة جنيه! بعد تركيب السلطانية اتضح أن الصديرى ينقصها! ثمنه ستون جنيها هذا الصديرى! تبقى خلاطات السخن والبارد ويعلم الله كم ثمنها!».

استطرد كأنه يعتذر عن هذه الرفاهية الفاحشة :

ـ «نسوان تسكن العشش فى مواجهتى عندهن سخن وبارد ومرحاض أفرنجى! مرحاضى شىء بشع وغير إنسانى! لم تعد مفاصلى تقوى على التقرفص فوقه! ثم إن الفاس وقعت فى الراس ولا مجال للتراجع!».

نبرة الأسى كانت تتضح بزهو كبير عصىٍّ على التخفى، لمجرد أنه أصبح يقوى ماديا على تغيير المرحاض.

عبرنا إلى الردهة المفروشة بالسجاد وأطقم للجلوس من الجلد الثمين، والحوائط كلها مزدانة بصور لرؤساء العالم كله وبعض رجالات مصر داخل براويز صغيرة متساوية الأحجام مرسومة بالكاريكاتور الملون. تلكأنا أمام باب المكتب. قلت له :

ـ «أنت ستتكلف مبلغا كبيرا، فهل نويت البقاء نهائيا فى هذه الشقة فى هذا الحى الشعبى المكتظ بالشقاء؟!».

انكمش شاربه الكثيف ثم انفرد. استدرك مشوحا :

ـ «زوجى قالت إننا يمكن أن نسترد هذه الفروقات حينما نترك الشقة! ولكن إلى أن تظهر لى شقة جديدة من عالم الغيب فإننى مجبر على تغيير وضع المرحاض!».

قلت بحماسة مفاجئة :

ـ «ستكسو الجدران كلها بالسيراميك؟».

ـ «نصفها فقط! والباقى بالزيت حتى السقف! أما المطبخ فسنؤجله لحين ميسرة!».

ـ «على فكرة! عليك بسيراميك كليوباترا! إنه جيد يعطى للحمّام أبهة! كالفنادق الكبرى!».

ـ «اشتريناه بالفعل! أصحاب البيت سباكون فى الأصل وأحدهم يتولى العملية كلها! لم أكن أعرف أن العملية تأخذ كل هذه الدَبكَة! هدم أرض وتغيير مواسير وحفر حوائط وبهدلة!».

ـ «بالمناسبة! هات المواسير من النوع الجيد الصلب لكى يحتمل مدة طويلة حتى لا تقع فيما وقعت أنا فيه، إذ بعد أن كلفت الحمام الشىء الفلانى اكتشفنا رشح مياه فى حجرة نوم الأولاد فى الحائط المتصل بحوض الحمام! جئنا بالسباك، فقرر أن ماسورة السخن هى التى ترشح، ولكى نغيرها لابد أن نهدم جزءاً كبيرا من حائط الحوض! لكننا أجلنا هذه العملية حتى نعثر على كرتونة سيراميك من نفس النوع ونفس اللون. أما الحقيقة فإننا أجلناها لأنها تتكلف ألف جنيه أو أكثر!».

ولم يكن شيئا من ذلك قد حدث. وقال صديقى:

ـ «اليوم سأنزل لأشترى خلاطات السخن والبارد! قيل لى إنها مرتفعة الثمن جدا!».

تقدمنا خطوتين نحو الباب العمومى. توقفنا. قلت:

ـ «هناك نوع ممتاز جدا من الخلاطات! تجد على مقابض الصنابير نجمة حمراء ونجمة زرقاء! الحمراء للسخن والزرقاء للبارد! لقد جربت هذا النوع مؤخرا فاحتمل عنف الولاد وكثرة استعمالاتهم!».

وكنت قد شاهدت هذه المقابض الأنيقة ذات النجمة الحمراء والنجمة

الزرقاء فى حمّام قصر صديقى السيناريست التليفزيونى المشهور جدا كأبى الهول. وقال صديقى الكاتب الكبير:

- «أعرف هذا النوع الذى تقول عنه! وقد أوصيت به!».

- «هل اخترت لون السيراميك؟! اللون الوردى عندى شكله مبهج!».

- «تخيرت زوجى لون قلم الحبر الذى أعشقه! اللون اللبنى! اخترناه أيضا بغير رسوم!».

- «جميل! على خيرة الله!».

- «نتهاتف!».

- «طبعا! طبعا!».

سلمت عليه بحرارة. استدار عائدا إلى مكتبه وضيفته. استدرت متجها إلى الباب العمومى. فتحت الباب واستدرت ثانية فلمحت صديقى بظهره العريض يمشى متبخترا كالإوزة الخارجة لتوها من البحيرة. كان سعيدا فى مشيته؛ وكنت سعيدا لسعادته، ولكنه حينما اعتدل فى مدخل باب مكتبه واعتدلت فى مخرج الباب العمومى تلاقت نظرتانا على البعد، فلاحظت أن التقطيبة الكئيبة قد علَتْ وجهه كمن أفاق من حلم مبهج على واقع غير مبهج. انتقلت التقطيبة تلقائيا إلى وجهى. فوجئت بضوء النيون على سلم النزول؛ فأنبأنى برق الضوء الخافت بأن الليل فى الخارج قد استأنف مسيرته السرمدية.

شرفة على شارع خلفى

رأيتنى فى «المقعد» الصيفى فى دارنا فى البلد، المبنى بالخشب البغدادلى المغفق بالطين والمدهون بزخارف ملونة تخط على حوائطه أفاريز وأطباق زهور. السرير ذو العمدان النحاسية والناموسية منتصب فى الركن يطل على الشباك البحرى، يفصل بينه وبين الشباك صندوق أثرى طويل كالتابوت الفرعونى كنت فيما مضى أتخذه كنبة مريحة للمذاكرة وللنوم فى القيالة تحت غطاء رقيق من الهواء النقى الطرى الذى يتحول إلى عواصف ذات رفيف موسيقى إذا ما انفتح باب المقعد المواجه للشباك.

رحت أسائل نفسى فى ابتهاج: كيف غاب عنى هذا المقعد الجميل طوال ذلك العمر المنصرم؟!. وكان من الواضح أننى قد هجرت العاصمة العتيدة وجئت لأقضى بقية العمر هاهنا فى هدوء وصفاء، وهاهى ذى كتبى وأوراقى وآخر عدد من سلسلة عالم المعرفة الكويتية مع نسخة حمراء الغلاف من الطبعة الثانية لكتاب روجيه جارودى عن الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل إلى جانب صحف ومجلات طازجة تتصاعد منها رائحة الورق وحبر المطابع، كل ذلك موضوع فوق البوريه ذى الأدراج العريضة والمرآة المركبة فوقه بعرضه عرض الملاصق للباب؛ وثمة راديو ماركة فيليبس كبير عتيق يعمل بالبطارية السائلة. وكنت أنا والسرير والشباكين المطلين على الاتجاه البحرى نظهر كلنا فى المرآة ومن خلفنا تظهر الحقول

الخضراء المترامية الأطراف يتخللها نخيل وأشجار ومآذن وقباب متناثرة بعضها ظاهر وبعضها غاطس فى عمق سحيق؛ فأبدو وكأننى وسط عالم لاحدود لاتساعه. وكنت أعرف أن أدراج هذا البوريه تحتوى على ثيابى التى جئت بها من القاهرة معى، كما أعرف أنها لا تزال تحتوى على بقايا ثياب أبى التى هجرها منذ أن جاء للإقامة فى القرية بعد إحالته إلى التقاعد، فخلع القمصان الأفرنجية الحريرية وأربطة العنق والسترات والسراويل الصوفية الثمينة فخزنها فى البوريه واستبدلها بالجلابيب. خُيل لى أننى الآن أنتظر رهطا من العيال زملائى فى المدرسة الابتدائية كى نذاكر معا، وأريهم محتويات البوريه ليتأكدوا أن أبى كان فى يوم من الأيام أفنديا سكندريا محترما وأكثر هيبة من ناظر المدرسة الذى يقرعنى دائما لعدم قدرتى على دفع أو شراء أى شىء تطلبه المدرسة. لكن خاطرا مبهجا أطل على رأسى مصححا الأمر بأننى فى الواقع أنتظر بعض الأصدقاء القادمين من القاهرة لزيارتى ها هنا؛ رحت أتصور مدى انبهارهم بهذه العزلة الجميلة الساحرة ومدى البهجة التى ستعتريهم سيما وأنهم جميعا من الكتاب والشعراء والموسيقيين والممثلين والرسامين وكلهم مغرمون بالعزلة مثلى وتستهويهم الأماكن والبيئات الجديدة وخاصة إذا كانت على شىء من الغرابة أو الطرافة. .

تناهى إلى مسمعى صوت حركة خارج المقعد، تبينت من إيقاعها المعهود أنها لا بد أن تكون زوجة عمى التى تضع يدها على المقعد الثالث المواجه للمقعد المجاور لمقعدى. فكرت أننى يجب أن أخرج لأسلم عليها، على الأقل لتعرف أننى صرت من الآن مقيما فى هذا المقعد، لكى تضعنى فى حساب تحركاتها. فتحت الباب وخرجت، لم أجد أحدا فى الردهة. الدرابزين الخشبى المشغول بالمخرطة لمنور السلم الخشبى المهيب كان يلقى

على أرض الردهة ظلاله على هيئة صف من الأشباح لعرائس مخروطية قصيرة القامة محندقة رشيقة. نظرت فى المقعد المجاور لمقعدى؛ لم أجد فيه سوى الحصيرة والمخدات التى أعدت لنومنا أنا وإخوتى منذ ما يقرب من خمسة وخمسين عاما. وكان الطلاء والغفق قد تساقطا عن بقع كثيرة فى جدران المقعد، فظهرت شرائح الخشب البغدادلى كالضلوع العارية تفصل بينها فجوات بعثت القشعريرة فى بدنى من طول ما أخافتنى كمخبأ للفئران والحشرات والثعابين الملاحقة للفئران. مقعد امرأة عمى كان على غير العادة مفتوحا. تنحنحت، طرقت بأصبعى صدغ الباب. لم يجبنى أحد. دلفت داخلا. كان المقعد خاليا تماما حتى من المفروشات. أذكر قديما أن المقعد كان مربعا متساوى الأضلاع؛ لكننى فوجئت الآن بأنه شبه مستطيل، فوجئت كذلك بوجود باب فى أول الجدار المواجه لى، مجرد فتحة أعلى من قامة رجل. دخلت فيها؛ فإذا بى فى ممر عريض جدا مفتوح على الشارع الخلفى، طويل بطول الشارع، كشرفة مستطيلة ذات عمدان أسطوانية تقسمها إلى مجموعة فتحات كأبواب تشبه الإيوانات ذات بكيات. أدهشنى وجود هذه المساحة التى لم أكن أعلم من قبل شيئا عنها مع أنها كما هو واضح جزء من دارنا التى أعرف كل طوبة فيها معرفة دقيقة. أدهشنى كذلك وجود هذا الشارع الذى لم يكن له وجود قبل هذه اللحظة؛ مع ذلك بدا لى كأننى كنت على علم بأنه ربما كان موجودا. أدهشنى أكثر أنه أقرب ما يكون إلى شارع خلفى فى مدينة عتيقة، مما جعل دارنا تبدو ولأول مرة كأنها تقع على ناصية ميدان تجرى فيه السيارات والدراجات والحناطير والعربات الكارو مع أننى فى آخر زيارة لبلدتنا حين جئت للعزاء فى حماتى منذ أسابيع قليلة لم أرَ شيئا من هذا..

منظر هذه الشرفة الطويلة جدا، العريضة جدا، قد سرنى غاية السرور. قررت فى الحال الاستيلاء عليها وتقفيلها بالخشب أو الألموتال والزجاج، وتحويلها إلى مكتب أنقل فيه مكتبتى المتكدسة فى شقتى بالعاصمة فى تلال تحجب الأرفف والدواليب بل وتحجب عنى القراءة نفسها إذ أصبحت أعجز تماما عن العثور على الكتاب الذى أطلبه. عبرت درجات سلم هابط إلى أرض الشارع. ورغم يقينى من أن المقاعد الثلاثة هى الطابق الثانى لدارنا فإننى لم أفهم كيف أن هذه الشرفة الملحقة بمقعد امرأة عمى تقف على أرض الشارع؛ ولم أحاول أن أفهم، وبدا كأن هذا ربما كان طبيعيا لأمر ما لست أدريه الآن..

وقفت فى مواجهة الشرفة منبهرا، ربما لأنها أول شرفة أراها فى حياتى مبنية بالطوب اللبن ومُليسة بالطين المخلوط بالتبن، وكانت تبدو مع ذلك جميلة جدا باتساعها وحميميتها. صرت أتخيل منظر الرفوف حين تنتقل إلى هنا وترقص بجوار بعضها البعض مضافا إليها رفوف جديدة ترتص الكتب فوقها جميعا فى قبائل وعائلات يسهل التعامل معها. تخيلت موضع المكتب، فاخترت له ذلك الركن البعيد ذا السقف المقبب. قررت أن أفاوض امرأة عمى فى أمر هذه الشرفة حتى تتنازل لى عنها بأى مقابل يرضيها. مشيت بجوارها حتى نهايتها لأعاينها معاينة التنفيذ وأقدر عدد الرفوف الجديدة التى سأكلف النجار بصنعها على طراز الرفوف الموجودة عندى. عند آخر الجدار المطل على الميدان العتيق استدرت عائدا وأنا على ثقة من أن امرأة عمى لن تعترض بل ستكون سعيدة لأننى بإقامتى فى البلد سأعيد إلى الدار هيبتها القديمة ومجدها السالف، وهذا ما تحلم به امرأة عمى دائما..

صعدت الدرجات القليلة، صرت داخل الشرفة. فوجئت بأن الفتحة المتصلة بمقعد امرأة عمى قد سُدت بالطين. كان الطين طازجا وطريا؛ التصقت يدى به بمجرد مرورها عليه تتحسسه. صرت أزعق وأنادى لكننى لا أعرف من على وجه التحديد كنت أناديه، فقد كان يلوح لى أننى على علم بأن إخوتى جميعا قد رحلوا، واحد مات فى حرب أكتوبر، الثانى مات بداء الكبد الوبائى، الثالث مقيم فى الإسكندرية، والرابع مقيم فى مدينة المركز حيث يعمل موظفا فى أحد البنوك؛ أما أخواتى البنات فقد تزوجن فى بلاد بعيدة، وأما امرأة عمى فقد مات كل أبنائها وتفرق أحفادها فى دورٍ بعيدة مع زوجات تمردن على دار العائلة لسبب أو لآخر..

أخيرا استجيب لزعيقى؛ رأيت سدة الطين تنزاح نحوى كباب من الطين السميك. كان ثمة من يبتسم لى معتذرا؛ لكننى لم أتبين وجوههم على وجه الدقة وإن كنت على كثير من الثقة أنهم يمتون لى بصلة قربى وثيقة. عبرت مقعد امرأة عمى متوجها إلى مقعدى الذى كنت فيه منذ برهة وجيزة، والذى تضاءلت كل مميزاته أمام رحابة هذه الشرفة العجيبة. فوجئت بأن المقعد قد تحول إلى صف من الدكاكين المبنية بالمسلح على أرض الشارع ولها أبواب من الصاج الجرار مغلقة. مع ذلك صرت أبحث فيها عن باب مقعدى فيما أنا مفعم فى أعماقى بشعور من الغبطة بتحول المقاعد إلى مشروع شارع ناشئ لمشروع مدينة على أهبة القيام. وقفت حائرا كطفل تائه، وكلما نظرت حوالىَّ باحثا عن أى منفذ يوصلنى إلى دارنا أفاجأ بأننى محصور بين هذا الشارع الناشئ ومجموعة من المقابر المتناثرة من حولى قريبة الشبه إلى حد كبير بمقابر المجاورين فى حى قايتباى

المتاخم للعاصمة والذى اخترته من قبل منتجعا للعزلة من أجل القراءة والكتابة. عاودنى الشعور بالغبطة لزحف العمران على المقابر، لكننى لم أفهم علاقة هذه المقابر بدارنا التى لم تكن قريبة منها فى يوم من الأيام. الشعور بالغبطة ما لبث حتى انمحى تحت شعور بالانقباض والكآبة والرجفة تنفض قلبى نفضا قاسيا. رغم ذلك كان المنظر مألوفا لى بل وعلى شىء كثير من الحميمية. حاولت العثور على أى وجه أعرفه فلم أجد ثمة وجه على الإطلاق، وإن كنت أشعر بوجود حركة عارمة ومضمرة فى قلب هذا السكون المريب.

الأشــــلاء

حينما قرأت فى الصحف أن صديقى الكاتب الصحفى الكبير قد سافر إلى إسرائيل ضمن الوفد المرافق للرئيس السادات إعلانا لحسن النية على اتفاقية كامب ديفيد؛ شعرت بألم شديد. فأمير الغندور هو الذى ظل طوال ربع قرن من الزمان ينبهنا فى عموده اليومى إلى خطورة العدو الإسرائيلى ويحذرنا من ألاعيبه وحيله الشيطانية ومن تقدمه التكنولوجى الشرير؛ فهل تراه كان يجهزنا لليأس منذ وقت مبكر لكى نصل إلى هذه الخاتمة حتى ونحن فى نشوة النصر؟!.

على أننى لم أحقد عليه ولم أسخط مثل الكثيرين من زملائى الصحفيين الشبان. فأنا فى الواقع أحبه جدا، وأدين له بالفضل فى كثير مما تعلمته منه. لهذا لم أقطع صلتى به بل ظل حميما بالنسبة لى كما كان طول عمره. قلت لنفسى إنه حر يفعل كل ما يشاء طالما أنه لا يلزمنى بشىء مما يفعل، ولا بد أنه اقتنع - بحكم خبرته السياسية واقترابه من دائرة صنع القرار - بضرورة الصلح مع إسرائيل؛ أو على الأقل هو لا يستطيع أن يعصى للرئيس السادات أمرا؛ ثم إنه ليس وحده الذى قبل السفر؛ فإذا كان رئيس البلاد نفسه قد أخذ هذه المبادرة التاريخية المذهلة فليس على من يعملون معه أى لوم.

وهكذا اعتبرت الأمر كأن لم يكن. لم أكف عن الاتصال به عبر الهاتف من حين لآخر، لاستطلاع رأيه فى موضوع، لاستشارته فى أمر، للرجوع إليه فى معلومة؛ وربما لمجرد السلام والتعبير عن الأشواق.

ردوده لم تتغير عما كانت عليه قبل السفر؛ ظل دائما ذلك الهاشّ الباشّ، المرح، الخفيف الظل، المفتون بالغمزة والقفشة والنكتة ذات الطابع الثقافى؛ مما شجعنى على مداومة الاتصال. ولما كنت أتحرج دائما من زيارة رؤساء المؤسسات فى مكاتبهم فإن الهاتف بقى الوسيلة المثلى للمودة.

وفيما أنا متوجه إلى مكتبى ذات ضحى، فى المؤسسة التى تقع لصقَ مؤسسته الحكومية؛ فوجئت به واقفا على باب المؤسسة وسط رهط من الأفندية لم أتبين بينهم أحدا ممن أعرفهم. كان يبادلهم الابتسام والملاطفة؛ كما كان واضحا أنه فى انتظار السائق؛ الذى سرعان ما أقبل من الحارة التى تفصل بين مؤسستنا ومؤسسته؛ متهاديا بالسيارة الليموزين السوداء.

لم يكن من اللائق أن أراه ولا أسلم عليه. بعاطفية فلاحية جياشة اندفعت نحوه فاتحا ذراعى متأهبا لاحتضانه بحرارة وشوق كبيرين؛ فإذا بالأرض تميد بى فجأة وينهدم الكون كله فوق رأسى دفعة واحدة. فوجئت به يرتد إلى الوراء مذعورا، وغابة من الأيدى القوية تنقضّ علىّ تكتفنى وتلوى ذراعى..

مرّ دهر طويل قبل أن أسترد أنفاسى وأنظر حوالى مستفهما عما حدث. رأيته واقفا شاحب الوجه واضعا يديه فى جيبى السروال، يبدو عليه أنه لا يعرفنى على الإطلاق؛ فانثالت فى رأسى عشرات الصور الفوتوغرافية التى التقطت لى معه على امتداد عشرين عاما فى مناسبات مختلفة؛ لوحات أغلفة كتبه التى أهداها لى، مقدمته لأول كتاب أنشره

وما تحويه من كلمات الإعزاز والتقدير. تذكرت أيضا مداعباته الكثيرة لى فى حفلات عيد ميلاده التى حرص دائما على دعوتى لها وحرصت دائما على حضورها. .

ركزت بصرى فى عينيه؛ فأغمض عينيه وشوح صائحا فى قرف: سيبوه؛ وهفَّت من ثيابه رائحة شديدة النتانة طاغية كاسحة تفترس رائحة العطر الذى أغرق به نفسه.

انصب كل اهتمامه عليهم وهم يفتشوننى بدقة هائلة، فلما اطمأن إلى نتيجة التفتيش مضى نحو السيارة الليموزين فركب فى المقعد الخلفى؛ فزحفت السيارة فظهرت من خلفها سيارة حراسة مصفحة. وإذ اختفت هذه وتلك عن الأنظار فكوا قبضاتهم عنى؛ فعدت إلى مكتبى منكس الرأس أبحث فى الأرض عن أشلائى المبعثرة؛ فلا أرى إلا بقايا رائحة النتن لا تزال عالقة بتراب الشارع؛ وقد تمزق الشمل الذى كان محيطا به وبى، تشتت ودهست ظلاله السيارات.

الحــاجـز

كنت قد صعدت إلى السيارة ـ الأتوبيس ـ من باب الدرجة الأولى، فى عظمـة لورد إنجليـزى، وعـجـرفـة ضـابط تركى. كـانت السـيـارة مكتظة بالركاب غير أن الجميع يجلسون فى ارتياح تام، وفى صمت خاشع مقهور كـأنهم فى سـرادق للعـزاء. لم أجـد لى مـقـعـدا؛ فـرضـيت بالوقـوف دون غضاضة.

ثمة حاجز زجاجى يفصلنى عن السائق . .

فى مرآة السائق المستطيلة ـ التى تعكس له الطريق من الخلف ـ رأيت نفسى أنيقـا جدا: هيئة من الملبوسات لـم أكن أبدا ممن يستسيغون ذوقـها وإن بدت على شىء من الأبهة. عجبت كيف اتسقت على كتفى هذه السترة الصوفية ذات الكـاروهات الزاعـقـة الألوان، واسـتـقـام على سـاقىّ هذا الســروال السخى، واستقر على أنفى هذا المنظار الطبى الذهبى الإطار؟! . .

سرعان ما شعرت بالانقباض. أحسست كأن السبب فى ذلك معروف لدىّ وإن كنت لا أدرى كنهه بالضبط . .

لســبـب لا أدريـه نـظـرت فـى قـدمىّ. وجـدتنى ـ مع كل هـذه الأبهــة الطارئـة ـ حافـى القـدمين تـمـامـا. خُيِّل لى كـأننى كنت أعـرف أنى هكذا على الدوام . .

شعرت فى الحال أن الركاب ينظرون إلىّ ولكن لم يكن يبدو عليهم أى نوع من الاستهجان. قلت لنفسى: لعلهم لا يهتمون بما لا يعنيهم، أو لا بد أنهم قد التمسوا لى الأعذار..

نظراتى أخذت تطوف بسرعة على وجوههم؛ لاحظت أنهم جميعا غير عابئين بى أو بأحد غيرى. أعدت النظرة الجائلة فاتضح لى بشعور شبه يقينى أنهم جميعا من الأجانب ومن ثم فهذه السيارة تقطع بهم رحلة سياحية إلى مكان مجهول. قلت لنفسى: ربما كنت الأجنبى الوحيد بينهم..

دهمنى شعور جارف بأننى يجب أن أتحدث مع السائق فى أمر ما؛ لكن لا أدرى لماذا أنا محرج من محاولة التحدث معه..

اضطررت إلى ثنى ركبتى لأصل بفمى إلى مستوى أذن السائق عبر الحاجز الزجاجى. يبدو أننى تحدثت إليه بالفعل إلا أنه لم يسمع. اضطررت إلى مزيد من ثنى الركبة للمزيد من الميل لعل ما أريده يصب فى أذنه مباشرة. صرت محرجا جدا من اتخاذى هذا الوضع المبالغ فى رشاقته كأنى راقصة باليه؛ مع أننى لم أكن محرجا هكذا من حفائى رغم ما يبدو على مظهرى من أبهة.

خُيِّل لى أنى ابتسمت؛ كمل خُيِّل لى أنى أبلغت السائق برجائى. لكننى أعدت الرجاء بشىء قليل من العصبية المبطنة بحسن الذوق والكياسة.

ـ أرجوك! أعرف أننى أطلب طلبا خارقا، ولكنى مجبر عليه! هل يمكن

انتظارى دقيقة واحدة حتى أحضر شيئا نسيته فى الفندق الذى كنت أبيت فيه؟!

ولم أكن واثقا أننى كنت نازلا فى أى فندق أو فى ضيافة أى أحد فى أى مكان. وبدا لى أن السائق قد سمعنى بالفعل لكنه لم يفهم شيئا مما قلت؛ إذ أشاح بوجهه عنى فى عدم اهتمام وأشعل لفافة بدت طازجة النكهة. .

اعتدلت فى وقفتى مقهورا، ممسكا بيدى الاثنتين فى القضيب الحديدى المثبت فى سقف السيارة، أحاول ـ مصلوبا ـ أن أحفظ توازنى؛ فيما رحت أتابع الأشجار اليابسة والمزارع الجافة وأعمدة البرق وهى تتراجع إلى الخلف فى سرعة مذهلة.

فراء الثعالب

متى استأجرت هذه الحجرة الحقيرة لكى أسكنها؟! لست أذكر. إنما يلوح لى أننى أبقيت على شقتى القديمة العتيقة الآيلة للسقوط لكى أنفرد فيها بنفسى معظم الوقت؛ وهى مكونة من ثلاث غرف وردهة كبيرة وشرفة تطل على منور مسور بسلك شائك يكسوه عشب كثيف؛ وقد احتلت مكتبتى حجرة المكتب وزحفت الكتب على الردهة والشرفة وغرفة النوم الحافلة بسرير ودولاب للملابس وسراحة بمرآة أصيلة؛ وجدران الشقة كلها ناشعة بالرطوبة يتساقط الطلاء فى أجزاء كثيرة منها، أما سقفها فقد تآكلت فيه المونة وسقطت منها بقع كثيرة كاشفة عن أسياخ الحديد.. وأبدا أبدا ليس من بينها هذه الحجرة التى أرانى فيها الآن حيث لا سرير ولا دولاب ولا حتى طبلية أو مقعد اللهم إلا طقطوقة متداعية الأرجل من فوقها ومن تحتها كتب وجرائد ومجلات وأوراق وأشياء غامضة.

الحجرة تبدو مع ذلك حميمة؛ وأبدو غير مستاء من وضعى فيها. ثمة يقين فى منطقة بعيدة من ذهنى بأن لى شقة نظيفة فى عمارة ما فى مكان ما من المدينة حيث يقيم أولاد لى وزوجة؛ وأننى - فيما يبدو - معتاد على زيارتها وزيارتهم والمكوث فيها زمنا كلما أردت؛ لكننى لا أذكر متى كانت آخر مرة زرتها؛ بل لست أذكر شكل الأولاد ولا شكل أمهم ولا ما تحتويه تلك الشقة من أثاث.

باب الحجرة كان مفتوحا، ويبدا أنه هكذا دائما. أمامها فراغ صغير لا أعرف إن كان بقايا سطح أم هو مدخل أرضى؛ إنما هو أشبه بأرض طينية متصلبة. كان من الواضح لى أننى أعرف أن ثمة حجرة لصق حجرتى يسكنها رجل وزوجته؛ لهما طفلة جميلة حبوبة. بدا لى أن هذا الجار يمت لى بصلة قربى وثيقة؛ ربما كان خالى أو ابن عم أمى. هو رجل بحبوح ضحوك أسمر اللون وزوجه زنجية مرحة كان قد عاشرها وهى فتاة ثم اضطر للزواج منها فعاش معها سعيدا مبسوطا؛ غير أننى لم أكن أعرف شغلته على وجه التحديد وإن كنت أشعر أننى على ود معه ومع زوجه ومع الطفلة. لا أذكر أننى دخلت حجرتها أبدا وإن كنت أرى جزءا من داخلها أثناء مرورى هو الجزء المشغول بكنبة منجدة اعتاد هذا الرجل الجلوس عليها ليلعب الورق مع زوجه شطرا طويلا من الليل.

أمام باب الحجرتين مباشرة طلمبة ماء بحوض أسمنتى حوله مياه عطنة ووحل. كان يلوح لى أننى أستخدم هذه الطلمبة فى غسل وجهى ولكننى مع ذلك لا أذكر أننى استخدمتها مرة واحدة.

الوقت كان ليلا؛ والمساحة الفارغة أمام الحجرة مضاءة بنور أقرب إلى أن يكون نور الفجر مخلوطا بضوء أصفر اللون منبعث من الحجرة الملاصقة، حيث كان من يبدو أنه خالى أو قريب أمى لا يزال ساهرا يشرب الشاى ويدخن النارجيلة فيما وقعت زوجه الزنجية السمراء على حوض الطلمبة تغسل مؤخرة طفلتها الشقراء ذات الشعر الكستنائى الغزير الطويل كشعر أنثى ناضجة. وكنت أداعب الطفلة من على بُعد، وبدا لى لحظتها أن ثمة أصدقاء لى يعرفون هذه الحجرة وأنهم يجيئون لزيارتى فيها باستمرار غير أنى لا أذكر أى أحد منهم.

فجأة رأيته مقبلا فى المساحة الفارغة. داخلنى شىء من الفرح بمجيئه. لم أكن أعرف من هو بالضبط؛ إنما كان من الواضح أنه صديق عزيز ممن يفرح الإنسان لمرآهم: وجه مألوف جدا لكننى غير متذكر لاسمه أو هويته أو شغلته؛ كل ما أذكره عنه أنه أحد الأثرياء الذين ينفقون عن سعة ويكرمون أصدقاءهم يفيضون عليهم بالخير. كان مربوع الوجه أبيض اللون مشوبا بحمرة خفيفة وله شارب أشقر لطيف؛ ممتلئ الجسد فى رشاقة وشبع؛ يرتدى قميصا شفافا أبيض وسروالا ثمينا وحذاء مما يقال إنه فوق الخمسمائة جنيه. بدا لى كأنه معتاد على زيارتى فى هذه الحجرة وأنه حميم. قال لى وهو يقترب من باب حجرتى بعد أن لاطف الطفلة الشقراء وألقى التحية على أبيها وأمها:

- «يلا يا عم.. إنت لسه مالبستش؟!».

بدا كأننى كنت على موعد غامض معه، وأن الليلة ليلة العيد الكبير، وأن المدينة - خارج هذه الحجرة - تعج بالفرح والصخب والبهجة. واصل هو حديثه:

- «اللحمة فى انتظارك.. يلا عشان تتعشى.. أنا عازمك؟!».

بدا كأنه جاءنى منذ لحظات قبل هذه المرة وأنه استغيبنى فجاء يستعجلنى، وأننى - لسبب لا أدريه - متراخ فى الذهاب معه وإن كنت مبتهجا بدعوته. ثم بدا كأنى مُحرج منه، وأن من الواجب أن أذهب معه؛ حينئذ شعرت بأننى من الضرورى أن ألبس ثيابا على شىء من الأناقة قدر الإمكان ولتكن سترة فوق قميص محترم. لحظتها فحسب وقع بصرى على الحائط المجاور للباب؛ ثمة مسامير مدقوقة فى الحائط علقت عليها ثيابى. اقتربت منها؛ فوجئت بأنها ثيابى القديمة التى هجرتها منذ حوالى عشرين

عاما؛ بينها سترة حميمة من الصوف الأصلي مبرقشة بنقط سوداء على أرضية فى لون الرماد. كنت أحب ارتداءها على سروال أسود؛ لكننى تذكرت أني تخلصت من السروال الأسود منذ زمن بعيد ولم أستبدله بغيره من نفس اللون. تبينت أن فى ذهنى سترة معينة اشتريتها حديثا وأنوى ارتداءها بصفة مستمرة غير أننى لا أذكر لونها على وجه الدقة. صرت أقلب فى الثياب وقد وقر فى ذهنى أن صديقى قد سبقنى إلى المكان الذى يتعين عليّ أن أذهب إليه لتناول العشاء الدسم. وفيما رحت أرتدى السروال لمحت فتاة سمينة واقفة بجوارى تقلب فى الجرائد والكتب والأشياء الموضوعة على الطقطوقة المتهالكة. كان من الواضح عليها أنها تستنكر وضعى هذا رغم أنها ـ فيما بدا لى ـ كانت إحدى زميلاتى المحررات فى المجلة التى أعمل بها، وأنها ممن أستلطفهن كإخوة صغار لى، أقدم لهن النصائح بإخلاص ولا أبخل عليهن بكتبى. ثم تبين لى أننى ساخر من استنكارها غير عابئ به لأنه فيما بدا لم يكن جديدا عليّ.

فجأة وجدتنى فى الشارع مرتديا كامل ثيابى؛ محفظة نقودى تلح على ذهنى تبعث فى قلبى شيئا من التطامن إذ أعرف أن بها حوالى أربعين جنيها مدخرة لأمر ما لست أذكره، وأننى يمكن أن أعتمد على جزء منها إذا ما تورطت فى أى موقف يستدعى إنقاذ ماء الوجه..

الحارة كانت حميمة، متعرجة، تتسع فى حودايات وتضيق فى أخرى لكنها كلها مضاءة بالنيون الساطع الخلاب، كلها ملآنة بمناضد عليها مفارش تمتد من المحل الواقع فى مدخل الحارة حيث يشغى المحل بالحركة. ثمة جرسونات يلبسون المرايل البيضاء يهرولون بأطباق الكباب والكفتة ذات الرائحة الزاعقة الفاتحة للشهية حتى لقد شعرت بجوع مفاجئ وهائل لم أشعر بمثله طوال حياتى...

جميع المناضد كانت ملآنة بالزبائن. مررت بينها كما لو كنت أعرف وجهتى، ثم عدت؛ لقيت صديقى واقفا قرب باب المحل ومعه فتاة غاية فى الجمال والرقة بدا أننى أعرف أنها زوجه. كان منشغلا فى دفع نقود كبيرة للجرسون كأنه يدفع ثمن المحل برمته؛ وبدا أننى واثق من أنه يحاسب على كل ما نزل على هذه المناضد من كباب وكفتة، وأن هؤلاء جميعا ضيوف عليه..

لمحنى؛ أشار لى من بعيد إلى داخل الحارة قائلا:

- «روح اتعشى.. هناك!».

توغلت فى الحارة؛ وصلت فى آخرها إلى مجموعة مناضد ملمومة على بعضها يشغلها رهط من الناس بدا كأننى أعرفهم جميعا وإن لم أميز منهم أحدا بعينه. ما إن اقتربت منهم حتى سمعت الجرسون يخاطب بعضهم قائلا:

- «خلاص! شطبنا!».

خيل لى أنه يخاطبنى أنا وحدى؛ وبدا كأننى غير واثق من صدقه، سيما وأن من بدوا أنهم زملاء وأصدقاء كانوا جالسين فى حالة انتظار لمجىء الأطباق؛ أمامهم مجموعة كبيرة من أطباق فيها سلاطات كبدة وخضراوات وطحينة وعجائن مجهولة الهوية وأرغفة الخبز؛ كل ذلك مهمل لا ينظر إليه أحد. حدثت موجة من الابتهاج والزئيط لمرآى. بعضهم وسع لى مكانا؛ أحدهم قدم لى مقعدا بجواره. جلست فى بحيرة من ضوء النيون المبهج؛ بدا كأننى جالس هاهنا بينهم منذ وقت طويل جدا وأننى بدأت أشعر بالملل بينما هم لا يشعرون. مددت يدى؛ تناولت فتفوتة

من سلاطة الكبدة طوحت بها فى فمى صرت ألوكها فتترك فى حلقى رحيقا مززاً . . .

فجأة وقف كل من حولى فى ضجر مفاجئ؛ ثم وقفت مجموعة كبيرة. صار الجميع يهتف فى تظاهر احتجاجى مرح :

- «بالهنا والشفا - . اللحمة ماجاتش! بالهنا والشفا اللحمة . . . ».

وجدتنى أشاركهم الهتاف المرح ولكن بشىء من المرارة الساخرة الأسيانة. ثم أقفرت الحارة فجأة فوجدتنى أسير وحدى مبتسما فى مرارة إلى حيث لا أدرى.

فتاة الجمباز

. . عندما حانت منى لفتة عابرة إليها رأيت جانبا كبيرا من جسدى على غاية من الوضوح التام، رغم أن الظلال كانت فيما خيل لى ساجية والضوء خاب: شريحة كبيرة من فخذى الذى أعرفه جيدا بكل شعرة فيه، يرتفع قليلا لينخفض عند الجذع ثم يستطرد ارتفاعه إلى الذراع بالكتف، أما الرقبة بالرأس فكانت مقطوعة بسيف الظلمة المجهولة المصدر، مما جعلنى أحمل هم رقبتى برأسها وأتساءل: هل يمكن أن يكون غيابها مجرد اختفاء موقوت فى المنطقة ليس غير؟! . .

على أننى حين سحبت نظرتى بشىء من الضجر والمرارة إلى ما خيل لى أنه فضاء حجرة نوم وثيرة الفراش سرعان ما تبينت أن رأسى بالرقبة ليسا هما الشىء الوحيد المفتقد الآن، بل هناك أشياء كثيرة لا تعكسها المرآة رغم أنها بعرض الحائط فوق حاملين بكل منهما ثلاثة أدراج صغيرة.

كدت أفقد الثقة فى هذه المرآة. عدت فالتمست لها العذر فى الحال فليس كل مرئى بقابل للانعكاس، هل هناك أشياء لا ظل لها على الإطلاق؟! لست موقنا من ذلك لكن المرآة لا تستطيع مثلا أن تعكس ظل هذا العطر الفريد مع أنه ذو وجود طاغ حى، إلا أنه بغير ظل يتجسد فيه.

كنت على ما يشبه اليقين بأننى لو رفعت فخذى فسوف يقبّ من تحته

جسدها الذى جبل على موهبة الاختفاء والتلاشى كلما احتويته فى حضنى، ربما لقوتى وربما لرخاوته.

شىء ثقيل جدا من المرارة يتكور فى قاع صدرى، إذ إننى على شىء شبيه بالثقة التامة أن ركبتى تضغط الآن على محض فراش هو على الأرجح لحاف مطبق فوق حشية. مع ذلك فأنا مشدود حتى ليكاد القوس ينفلت على الوتر، تنبعث من جوفى جمرات لاهبة تكاد تخرقُ الفراش.

ثمة ما يشبه الحقيقة ماثل تحت ذراعى اليسرى أراه بعينى، تسقط نظراتى الوالهة فى قلب عينين سوداوتين واسعتين، ومنها إلى عروتين كبيرتين مفتوحتين منسوجتين بخيوط من الحرير على صدر معطفها الوردى اللون المعلق على مشجب واقف فى الركن المواجه. هل العينان موجودتان بالفعل أم أن الباقى منهما مجرد وهج قوى تخلف بعد رحيلهما؟!

المعطف دليل كاف على وجود صاحبته فى هذه الحجرة التى من الواضح لى الآن أنها كل عالمى وليس ورائى ثمة مكان سواها. العجيب أن العينين الساحرتين جاحظتان لا ترمشان كأنما قد تجمدتا على نظرة تجسدت فيها ذروة الإحساس بنشوة الشهوة العارفة المذهولة من فرط الاستمتاع والمفاجأة. النظرة نفسها تبعث فى أعماقى إحساسا قويا بالنشوة والفجيعة معا.

خيل لى أننى كنت أعرف سلفا أن هذا الجحوظ فى هاتين العينين الماثلتين قد تجمد منذ وقت بعيد على لمعة شبقة تطلب الفناء التام فيمن فوقها. بدا أننى آلف هذه النظرة الشبقة ومع ذلك لم تفقد سحرها كلما طالعتها. بدا أن هذه النظرة لم تكن الشىء الوحيد الفاتن فى صاحبتها المختفية الآن تماما من المشهد المرئى.

انسحبت النظرة الجاحظة الشبقة من أمام ناظرى، تواترت أمامى كنوز جسدية تبعث على الجنون: رقبة طويلة مبرومة، نهدان بارزان على كثير من الصلابة والنفور يكاد كل نهد ينط كالكرة، بطن ضامرة منسابة فى أسفلها سرة غائرة تتوسط كثيبا لطيفا كالعجين الخمران، فخذان مخروطيتان، قدمان دقيقتان . .

الخروج من عضو إلى عضو خروج من دهر إلى دهر من عصر إلى عصر . كل العصور تقودنى مجدداً إلى عصر العينين من انسدال الرمشين إلى الجحوظ، فيما تختفى بقية الجسد فى المنطقة المظلمة . أحاول عبثا أن أستأنف تشردى الحبيب فى عصور النهدين والفخذين والعجيزة والسوة والسرة وما تحتها وما فوقها والإبطين والذراعين ناهيك عن جداول الشعر المنسابة على كل الهضاب .

لكل عضو من هذه الأعضاء قصص وذكريات وأوضاع لا تنتهى ولا تجف . كل عضو استعبدنى دهرا طويلاً أَلَّفت فيه الشعر والأغنيات واللقاءات وأقمت فى الخيال صرح اللذة المستلذة بمذاق اللحم وسخونة الدم المسكر . يا طالما رسوت على هاتيك الشطآن للنزهة لالتقاط الأنفاس من لهاث وحرارة نزهة سابقة لاستشعار لذة حاضرة استعدادا لانتهاب لذة قادمة لا محالة على الشاطئ المحاذى . لكل مرسى شخصيته المستقلة التى كم طاب لى البقاء فى أسرها طويلاً، حتى إذا ما جرفتنى الرياح النشوانة إلى مرسى آخر خضّتنى المفاجأة كأننى أرسو عليه لأول مرة . ميناء الثغر لا حدود لسحره، ذلك هو المدخل الحقيقى الذى طالما اقتادنى فى ممرات وتضاريس الجسد المغيّب الآن لا شك تحتى أو لعلنى أرانى من داخله هو .

رأيتنى أهوى على الثغر لأرتشف رحيقا يؤكد لى وجود هذا الجسد الحاضر الغائب. انزلقت الرأس كلها من بين يدى كأنما بحركة خاطفة بحيلة شيطانية مخيفة. حاولت الإطباق على آخر جديلة من الشعر لكنها تبخرت من بين أصابعى كالدخان.

يرتعد كيانى كله ينتفض بعنف سمعت له هزهزة السرير، طاقة ضوء مبهرة تنشق فى مكان بعيد جدا من رأسى، تأخذ فى الاتساع شيئا فشيئا. أرى منطقة الإشعاع الوافد جسدا مليئا بفروة من الشعر الغزير أغلب اليقين أنه جسدى ينكفىء فوق جسد طرى كالمطاط. اليدان المليئتان بالشعر تحتضن فخذها بقوة تغرقه بالقبلات اللاهثة الحيوانية، هل كانت قبلات حقا؟!

أصابتنى الرعدة كأن زلزالاً عنيفًا يجتاحنى فأغرق فى غابة من الأصوات المدوية: جدران تتهدم، صراخ ملىء بالفزغ، صيحات استغاثة: مجنون، مجنون، مجنون. واتتنى قوة جبارة مفاجئة، جمعت أطرافي واعتدلت قاعداً ثم هابطا عن السرير إلى الأرض.

رأيتنى بكامل هيأتى مقبلا نحو نفسى فى المرآة على صورة وحشية بشعة، فمى ملوث بالدم، بقع الدم المتخثر تبرقش صدرى وبطنى وفخذىّ، ثمة حركة عنيفة فى بطنى المتفخ بمنظره الكريه كأن مليون طفل يضربون بأقدامهم وأذرعهم داخل بطنى التى بدت كخيمة تسفعها الرياح، البالطو الحريمى لا يزال معلقًا فى المشجب. تقدمت منه، تحسسته بيدى، انكشفت تحته بقية ثيابها الخارجية والداخلية، فأين تراها ذهبت؟!!

انفجرت بقعة الضوء فى رأسى كالقنبلة، فتهاويت جالسا على حافة السرير فى قلب خيمة من الدخان الكثيف. كان من الواضح أننى لا أريد لهذا الدخان أن ينقشع كأننى أود الاختباء فيه من خطر داهم من جريمة

نكراء، لكن الدخان اللعين ما لبث حتى رقّ ورقّ ثم يأخذ فى التلاشى، فبدأت أتذكر كيف أكلت جسد حبيبتى عضوا عضوا دون أن أدرى.

ينتابنى شعور غامض تختلط فيه النشوة بالأسف بالمرارة بالفجيعة، لكن شعورا أشد غموضا ورهبة دهمنى: هل ترانى قد اغتصبتها؟ ما دمت قد أكلتها فلابد أنها قدمت نفسها لى عن رضاء واستسلام. لمع فى الظلام شىء كبرق السيف، كطوق نجاة ألقى به فوق رقبتى من مكان بعيد. كان خشنا كحبل المشنقة مع أنه وقد ازدادت سرعة دورانه قد تأكد لى أنه طوق لاعبات الجمباز الوظاويظ العذارى، أولئك اللائى يفتنّنى بعنف لا أملك له دفعا..

فى الحال تبين لى أننى رغم فعلتى لم أشبع تماما. هاهو ذا جوع أبدى للحبيبة ينبح فى أعماقى ككلب ملتاث، لست أذكر وجه حبيبتى على وجه الدقة، ربما لأن ملامحها المراوغة لم تعد تهمنى الآن إزاء فتاة الجمباز الماثلة أبدا فى ناظرى تلعب بالكرة التى طالما تمنيت أن أكونها، فتجيد إخفاءها تماما بين ساقيها المنفرجتين عن آخرهما.

الريح والأطلال

الريح كانت عاصفة عنيفة فبدت كأنها تستهدفنى وحدى. وكنت أبذل جهدا عظيما لأتقى الانكفاء على وجهى من صفعها المتواصل الجاد على ظهرى. . فإذا هى تجيئنى من الجانب عمودية فترمى بى إلى الجانب الآخر منهكا أحاول أن أتماسك فى وقفتى المنحنية المتصلبة، أشد أطراف الـ«بلوفر» حول صدرى على قميص خفيف من قمصان الحكومة اشتريتهما معا بالبطاقة وزهوت بهما أياما على المقاهى غير أنه لم يكن قد دار بخلدى أنهما غير قادرين على مواجهة هبوب مثل هذه الرياح. لم يكن كذلك قد دار بخلدى أننى يمكن أن أتعرض لهبوب مثل هذه الرياح، كل ما كان فى ذهنى أننى فيما بدا لى كنت ساهرا عند أحد زملائى وأصدقائى، لعله عادل ابن موظف البريد الذى يسكن فى العشش المتاخمة لناطحات السحاب البازغة حديثا على شاطئ النيل، وكان واضحا أننى كنت أرتعش منذ مدة طويلة ويخفق قلبى بشدة قبل هبوب هذه الرياح. وكان واضحا أننى كنت خائفا من شىء ما يكاد يشرخنى يبعثرنى شظايا. تذكرت أن مصدر هذا الخوف ربما يكون الحوا ر الذى دار بينى وبين زميلى، لقد تحدثنا لأول مرة فى حياتنا فى مسائل خطيرة كانت تبعث فينا لذة فائقة عن أشياء فينا، كنا نخفيها وهى غير خافية ، عن فقرنا، عن فاقتنا، عن ظلام مستقبلنا. .

لولا هبوب هذه الرياح المفاجئة لكنت حريا بأن أستمتع كثيرا بما خيل لى أننى قد فعلته منذ برهة، والكلام المنمق الموزون الذى خيل لى أننى قلته لصديقى، إعجاب صديقى وانبهاره بكلامى، إعجابى وانبهارى بأفكاره، اكتشافه أننى أفكر مثله، اكتشافى أنه يعيش مثلما أعيش، يعانى مثلما أعانى رغم تميزه الواضح عنى فى المظهر. أحاول استعادة تلك العبارات اللامعة المؤثرة التي نطقتها، لكن الرعدة تصك أسنانى تبعثر عقلى، لا يبقى فيه سوى الخوف الغامض الراسخ فى قعر بطنى. تأكد لى أن بعض عباراتى التى تفوهت بها ربما تكون قد مست رءوس بعض ذوى الجباه العالية. أظننى قلت هذا التعبير نفسه وكان من أسباب إعجاب صديقى بكلامى.. نعم قلت ذوى الجباه العالية، ولما فهمت أن صديقى قد فهم من أعنيهم على وجه التحديد، رحت أقول ما لا يخطر على البال من أوصاف تصور بشاعة ما فعلوه فينا وفى أسلافنا من جرائم..

اكتشفت أننى عرضت صدرى للريح برهة ثم تنبهت، فلممت صدرى وكومته بين كتفى، ولعنت صديقى، ومر بخاطرى أننى قد كرهته بشدة، لكن وجهه البرىء واحمراره حين يغرق فى الضحك وحين يقتسم معى عشاءه وشايه وكتابه وفراشه عندما تطردنى صاحبة البيت، كل ذلك طاف بذهنى فى لمح البصر فأحسست بشىء كالدفء يتصاعد من جوفى، وخيل لى أننى يجب أن أكون رجلا قويا فأحتمل مواجهة هذه الريح..

ها أنذا أحجل فى خطواتى المترنحة أندفع نحو اليمين تارة ونحو اليسار تارة أخرى، يابس الجسد جاحظ العينين أطلق من بين فكى المتشبثين بالانغلاق صيحات مرتعشة تعلو شيئا فشيئا مدوية، سرعان ما تبينت فيها شيئا من عواء الذئاب ونهيق الحمار وخوار البقر ونعيق الغربان ونعيب

البوم وحرقة كل الحيوانات البائسة المقهورة، أفاجأ بوفود من العدوان زاحفة نحو وجهى مباشرة على شكل عواصف من التراب وأوراق الصحف المزبلة والخرق، كانت تنجح فى كتم صوتى لبرهة وجيزة على أثرها يعاودنى ما يبدو أنه النواح أو العواء المقهور الخالى من أى أمل، بصوت أعلى، أكثر حدة ، أكثر شعورا بالفجيعة المحققة.

إذا بأصوات كثيرة قد بدأت تشارك صوتى وأسمعها ترتد معه من الأفق تكاد تهزم صوت الريح، لكن الزفيف الهادر ما يلبث أن يتعالى صراخه الحاد ليتضاعف صفيره المجلجل فى الأفق فتتجمد أصواتنا لبرهة كأننا نرهف السمع فى انتباه فى انتظار الكارثة. تنداح العواصف شيئا فشيئا، ينداح خلفها الضباب، تظهر معالم الشارع ، تنكفئ فيه البيوت على بعضها، يتلاصق لحم الجدران لكن الريح تشقها تدخل فى عظامها. درف الشبابيك - التى وضح أننى أعرفها جيدا - وضح أننى أعرف أنها أنفقت من عمرها ما يزيد على مائة عام رائحة غادية ساهرة على دفء القوم وسترهم وتوصيل عراهم. ها هى ذى الآن قد باتت عرجاء معلقة فى وهن، قد آن لها أن تلقى بنفسها فى حضن الريح منتحرة، احتمال كبير أن يكون القوم قد هجروها أو تكون أجسامهم قد بليت أو تصخرت. .

ها هى ذى درفة أحد الشبابيك تدوى ضاربة نفسها فى الحائط مرتدة بنفس العنف ضاربة وجهها الآخر تريد بإصرار صخرى أن تفتت نفسها أن تهرب لا شك من عار مخجل، لعل عارها أن تُركت بلا دور تلعبه. لذتها الفائقة كانت أن تؤوب آخر المساء ضامة جناحها على شقيقتها المقبلة نحوها من الجانب الآخر لتنعقد بينهما الآصرة بمقبض حديدى متين، لذتها الفائقة أن تفرد ظلها الحانى على الأنفاس تحتويها تكثفها تستر عريها، أما أن

تدركها الشيخوخة فتُهمل هكذا معلقة بمفصلة واحدة يتراكم فوقها الصدأ تبدو في ميلها كأنها تنزع نفسها في شوق لمعانقة شقيقتها أو الخطر، فإن هذا ما يبدو أنه يؤلمها وأنها لا تطيقه أبدا حتى أنها خفت في استقبال هلول طوائف الريح صائحة بيد القوم أن ضميني على شقيقتي بالآصرة أو يا ريح فلتأخذيني أنقذيني من عذاب التعلق في مشجب العار . .

تذكرت أن المخاوف بداخلي كثيرة وتبدو بلا نهاية، فكلما خيل لي أني عثرت على السبب الحقيقي لما يعتريني من خوف غامض مقبض كئيب سرعان ما يتضح لي سبب جديد، تذكرت أن السبب الحقيقي هذه المرة ربما يكون في ذلك الالتزام الذي كبلت به نفسي أمام صديقي. بحثت لبرهة طويلة عما قد يكون ذلك الالتزام، لست أذكره على وجه التحديد لكنني واثق من أن ثمة وعد بشيء عاهدت صديقي على تنفيذه وأنني إن لم أنفذه فلن أكون رجلا بعدها. مجرد تذكري لهذا الشيء يملؤني بنشوة كبيرة فماذا تراه يكون؟ لعلنا سنمضي غدا في مسيرة جماعية نطالبه فيها بكذا وكيت، لعلنا سنوقع على بيان على عريضة تصعد العتبات السامية، لعلني، لعله، لعلهم.

ها هي ذي درفة الشباك تنزع نفسها من المفصلة، تعانق الريح سابحة في الفضاء فيما بدا أنه جلال وعظمة. زحفها يأخذ سمته تجاهي. اتقيته محاولا الانبطاح لبرهة وجيزة لكن صوت الدوي الهائل ردني واقفا أنتفض وقد تملكتني سخونة مفاجئة كف معها صوت زئيري كما هدأت رجتي . .

راح طنين الدوي يتردد صداه حوالي. وكان القمر قد بزغ أخيرا بين شقوق السحب، يطل عليَّ بعين رمداء كأنما كانت العواصف تجلده

بالسياط على وجهه. رثيت له، وبدا كأن خطواتى تعرف اتجاهها، وبدا أننى أعرف أنى متجه إلى مسكنى القابع فى أحشاء هذه الحارة العتيقة الصدئة الكالحة، فبدا كأننى أجوس بين أطلال يتصبب من جدرانها ما لا أعرف إن كانت رطوبة الموت أم عرق الأنفاس المستكنة. وكان أوضح شىء فى ذهنى هو أننى فى الغد يجب أن أنضم إلى صديقى، إذ لا بد أن آصرة قوية ستجمع بيننا.. لابد.

الجانب المعتم

كنا جالسين فى ما يشبه الحجرة الضيقة كشريحة مستطيلة يظللها ضوء كاب، وهى ملحقة بحجرة خلفية ذات باب إلى جوارنا مباشرة، كانت مضاءة هى الأخرى بضوء كاب، إلا أنها أوسع كثيرا، ومربعة، غير أن محتوياتها لم تكن واضحة لى لحظتئذ، لكنى فيما بدا كنت أعتقد أنها تحتوى على عدد لا بأس به من الكتب التى نحبها أنا وصديقى ونتكلم فيها وعنها ومنها بعشق عميق كلما التقينا، كذلك تحتوى، فيما بدا، على ما يشبه نصبة المقهى، بكامل معداتها، وثمة فى الداخل من يعد لنا شيئا من المشاريب والطلبات الأخرى الغامضة، مع أنه كان من الواضح أننا شربنا شايات كثيرة وقهاو عديدة ولاتزال بقايا ملحقات النارجيلة أمامنا وحولنا، ورائحة صنان المياه التى احترق فيها التبغ والتى تندلق فى العادة حولنا لا تزال قوية نفاذة، تختلط ببقايا أحاديث خلابة جذابة حميمة أنفقناها فى جلستنا هذه التى بدا أنها بدأت منذ وقت مجهول إلا أنه قديم جدا. وكان من الواضح أن هذه الحجرة الغريبة المزدوجة، التى بدا أنها مبنية بشكل بدائى صرف، وفى نفس الوقت أصيل ومتين، ومسقوفة بالأسمنت المسلح فى بقاع وبالصفيح أو عروق وألواح الخشب فى بقاع أخرى، مقامة فوق سطح منزل بدا أنه عتيق جدا، ومرتفع جدا، مع أننى لا أذكر كيف دخلته أو متى ولا كيف صعدنا درجات سلمه حتى وصلنا

إلى هذا السطح الشاهق. إنما كنت أشعر، فحسب، بارتفاعه مع أننى لم أنظر إلى الأرض من علوه بل لست أعرف ما شكل بقية السطح أمام هذه الحجرة مباشرة، حتى صديقى الذى يجلس معى لم أكن قد تفحصت ملامحه، بل إنه كان بلا ملامح على الإطلاق، كالخيال كالظل الأسمر لكنه مجسد فى لحم ودم ولسان وصوت بدليل أن أمداء صوته وصوتى ما تزال قائمة فى أفق الحجرة رغم انداياح الرنين والصدى كحقائق مجهولة الهوية تتراكم حولنا مما بدا لى أننا اكتشفناه وعلقنا عليه واتفقنا على رأى واحد فيه طوال هذه الجلسة العميقة مما لابد أننا تحدثنا حوله.

كان قصير القامة، نحيف البدن، طفلى الضحكات، نحيف الكلمات والجمل، مقتصد فى كل شىء، أروب، يستمع أكثر مما يتحدث، فإن تحدث فمؤيد أو معارض لكنه قليل المعلومات نحيف الحجة ضحل الثقافة لكنه مع ذلك فنان موهوب مطبوع بشكل لا بد أنه أقنعنى به فاتخذته صديقا كما بدا لى الآن، كنت أشعر أننى أستأمنه على كل صغيرة وكبيرة تخصنى، بنفس القدر أشعر أنه يحتجز عنى أشياء لا حصر لها تخصه، لكن ذلك فيما بدا لم يكن يحنقنى، فمن الواضح أننى أحبه من زمن بعيد مجهول وأننى من ثم لست معنيا بتحليل شخصيته، كما أننى لست مستعدا لمراجعة علاقتى به فى أى وجه من وجوهها مع أننى فيما بدا لم أذكر طبيعة هذه العلاقة على وجه التحديد ولا ما هى قوائمها وأحداثها ووقائعها. شعرت آنئذ أننى كنت أجلس فى الجانب المضىء من الحجرة قرب الباب فى حين جلس هو فى الجانب المعتم فكان يرانى بوضوح تام فى حين لا أراه إلا ظلا مجسداً راسخا ذا حضور حقيقى حى. وكنت أشعر أن هذه الحجرة المزدوجة تنتمى إلىّ بقدر ما أنتمى إليها، إذ بدا لى أن

صديقى هذا كان ضيفا علىّ فى مكان بدا أنه يخصنى، وكان ذلك يبدو حقيقيا إلى حد ما، إذ كان فى خلفية رأسى ثمة شعور يقينى راسخ أن هذه الكتب التى بدا أنها فى الداخل هى ملكى، اشتريتها بجوع السنين، وانطبعت حياتى ولحظاتى النفسية المتقلبة وكل مباهجى ومآزقى وأحزانى مبصومة على هوامشها، كما أن كل ذاكرتى قد تركت مندوبين لها فى الصفحات وعرشت لعقلى محطات كثيرة بخطوط حمراء وزرقاء وسمراء تحت السطور وأسهم بحذاء الفقرات وفواصل بين أرقام الصفحات. ولم أكن واثقا مما إذا كنت قد قرأتها كلها على من بدا أنه صديقى أم أنه شاركنى فى قراءتها، لكننى كنت على ما يشبه الثقة بأن من بدا أنه صديقى سوف ينصرف إن عاجلا أو آجلا تاركا إياى وحدى، وأننى على أثر انصرافه ربما انتقلت إلى الحجرة الداخلية للقراءة أو الكتابة أو النوم أو ربما بقيت فى جلستى هذه إلى نهاية مجهولة. على أن شخصا ما خرج علينا فجأة من الحجرة الداخلية، كان طويلا جدا، ضخم الجسد كمئذنة، فى وجهه الكثير من ملامح إنسان الغابة، غلظة الملامح والشعر الكثيف الذى يغطى ذقنه ورقبته وصدره وحاجبيه، يلبس جلبابا واسعا رثا كالحا، وعلى قمة رأسه المستطيل الضارب إلى الشقرة طاقية من الدبلان. شفتاه الغليظتان تتلمظان على الدوام بما يبدو أنه يلوك حبة قرنفل أو ملبسة أو قطعة أفيون وقد بدا أنه معروف بأنه يفعل كل هذا، كان يمسك نبوتا من الخيزران التخين يقاربه فى الطول يشبه نبوت فتوات مصر القديمة الحميمين كما رسمتهم رواية الحرافيش التى وضح أننا قرأناها وعشقناها معا، بدا أننا كنا نعرف أن هذا الرجل هو المسئول عن هذا المكان، وأنه بانصرافه علينا أن ننصرف قبله، لكنه توقف برهة بجوارنا مغمغما بشىء فهمنا منه أنه منصرف الآن، وبدا على شىء كثير من الجلافة، وبدا أننا نتوقع هذا ونقره

بكل بساطة وأريحية مع أنه غمغم بشيء آخر بلهجة أمر كأننا صبيانه نعمل تحت إمرته لكننا لم نفهم كنه الأمر الذى ألقاه علينا واستدار منصرفا بما يشبه الاحتجاج أو التذمر. فى الحال نهض من بدا أنه صديقى نهوضا مفاجئا قائلا إنه منصرف هو الآخر، تضايقت منه جدا، وبدا أننى أعرف أنه دائما يتمتع بهذه الخصلة الذميمة إذ ينهض فى الحال بشكل مفاجئ وبجلافة تقطع أحلى حديث وأجمل لحظة مقررا الانصراف، وكنت أعرف أننى لو تمعنت فى وجهه فلن أرى سوى الملامح الدقيقة الناشفة اليابسة غير المستعدة لإبداء أى تعاطف مع أى شيء أو أى مشاعر على الإطلاق بشكل تعودت أن أكرهه كراهية شديدة لكننى مع ذلك أتجاوزه. وبدا أننى أنا الآخر يجب أن أقوم لأنصرف من هذا المكان الذى وضح لى أنه لا يخصنى وأننى كنت مجرد زائر له. فنهضت واقفا، استسمحت من بدا أنه صديقى أن ينتظرنى برهة لأنصرف معه، إذ إن المكان بدا فجأة موحشا جدا وبشكل لا يمكن احتماله، وأننى بدأت أخافه وأرتعش منه. وقف من بدا أنه صديقى أمام الباب، وخرجت أنا الآخر، لأكتشف أن السطح شديد الضيق، مربع، فى مواجهتنا جدا المنزل المجاور، يمتد منه سور مبنى حتى جدار حجرتنا مطل على الشارع الذى لم أكن أعرفه على وجه التحديد ولا أعرف فى أى منطقة هو ولا ما هى تفاصيله بالضبط، لكننى أشعر أننى منوط بإغلاق هذه الحجرة والتأمين عليها قبل النزول، وكانت خطوات الرجل الذى انصرف منذ برهة، ووقع عكازه على درجات السلم يتباعدان فى الهبوط لكن كحته الدائمة تنبئ أنه مازال فى زمام الأدوار العليا. وكانت سلسلة المفاتيح قد ظهرت فى يدى، قبضة كاملة من المفاتيح المنسلكة فى حلقة ذات ميدالية فضية أعرف أنها مكتوب عليها بالحفر آية: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾، وكنت ملهوفا ومتعجلا إذ إن من بدا

أنه صديقى كان لا يني يبث فىّ القلق برواحه ومجيئه وحومانه حول بسطة السلم، لحظتها كنت أقرب عينى من المفاتيح فى الضوء الشاحب المنبعث من الحجرة الداخلية وأقلب فيها محاولا الإمساك بالمفتاح المختص بهذا الباب، المفاتيح كثيرة، صغيرة جدا وكبيرة جدا، على أشكال مختلفة، وكنت ضائقا جدا بكثرتها كما كنت أشعر أن لكل منها وظيفة مهمة فى حياتى لا غناء عنها وعنه، كما كنت أتذكر أن مفتاح باب هذه الحجرة من بين المفاتيح الصغيرة المبططة الصفراء يتوه منى دائما بين مفاتيح المكتب والدولاب وخزائن الأوراق. وكنت أوشك أن أعثر عليه لولا أننى رأيت من بدا أنه صديقى قد تسلل هابطا السلم دون أن يشعرنى، كلص سرق منى شيئا مجهولا وتسلل هاربا قبل أن أضبطه متلبسا. صرت أرتجف من خوف مجهول غامض مصدره هذا المكان الموحش وبقائى على هذا السطح المجهول وحدى فى هذا الليل البهيم، صرت أغطى على الخوف بالاستغراق الجاد فى فرز المفاتيح، فيما راحت بعض اللحظات التى قضيناها معا منذ وقت قليل مضى تبرق فى ذهنى تحضر منها شذرات حية كمقاطع من بث هوائى فجرها زحف مؤشر المحطات فى المذياع، كان صوته فيها كلها يسألنى عن أحوالى ويطيب خاطرى، فوضح لى أننى لا بد أن أكون قد شكوت له بعض متاعبى المعنوية والمادية. تذكرت أنه طوال الجلسة كان يحاول الاطمئنان على مكاسبى، يلوم كل الجهات التى أتعامل أو أحاول التعامل معها لأنها فى رأيه لا تعرف قيمتى ولا تعرف قيمة أحد فى الواقع لأنها إما عميلة أو متخلفة، تبينت فى الحال أننى طوال الجلسة كنت أسخر فى نفسى من تعليقاته هذه، لأننى اكتشفت من أسلوبه الماكر ومحاولاته الأروبة كأنه يفتش فى جميع مصادرى على وجه الإطلاق يجمع عنها ما أمكن من المعلومات يسألنى عن أدق التفاصيل الخاصة بها،

لا ليرضى غروري بالتهجم عليها وإعطائي تفسيرا مريحا مقنعا لسوء سلوكها معى بل ليعيد هو بنفسه طرق الأبواب التى رأى أننى فشلت فى طرقها . . حينئذ كانت مجموعة المفاتيح ترق أحجامها فى يدى ويتضح لى أنها من مادة كالصفيح أو البلاستيك ، اتضح أنها من البلاستيك وأنها متشابهة تماما ، ومع ذلك بدا أننى مقتنع بأنها صالحة للاستعمال وأنها ربما كانت هكذا طول عمرها ، لكن فى اللحظة التى خيل لى أننى عثرت على المفتاح سقطت السلسلة فانفكت الحلقة وبعثرت المفاتيح فى الأرض المظلمة الحافلة بكثير من الكراكيب والطوب ، ثم إن الضوء قد انسحب تماما ، فتبينتُ أن الرجل قد خرج من باب الأرض إلى الشارع وأنه فعل ما يفعله دائما إثر انصرافه : يشد كُبس النور من البريزة .

الهدام

فى تلك الليلة البعيدة - بدأت أتذكر - قررت أن أدمر هذه الحجرة الضيقة التى شهدت مولدى أنا وسبع من إخوتى كما شهدت عذاباتنا وأحلامنا الموءودة تحت بطانية مهترأة من مخلفات الجيش وفوق حصير متآكل تطبع أعواده الناشفة أخاديد على جنوبنا تملأها بأسراب القمل والبق والبراغيث. مات ثلاث منهم فى ثلاثة حروب متتالية، وتزوجت اثنتان فى قرى مجاورة، وسافر اثنان إلى بلاد بعيدة لا نعرف عنها شيئا. وفيها مات أبى على مصطبتها الضيقة الكنزة بعد أن تمكن منه مرض الفشل الكلوى، ثم لحقت به أمى بعد شهور قليلة بأزمة ربو حادة فيما كانت تمليني خطابا لأحد إخوتى المسافرين ترجوه أن يبعث لنا ببعض أصناف العطارة تداوى بها صدرها المليء باللبش. .

قررت أن أدمر هذه الحجرة الحزينة. ذلك أنها كانت تزمع تدميرى لامحالة. فبعد موت أمى ماتت كل الأجواء المؤنسة فى الحجرة، مات الأنس الذى كان فى الأشباح التى ظلت تسكنها بعد غياب أصحابها فى القبر. بقيت الأشباح مجرد أشباح تدخل مع شحوب اللمبة الجاز نمره خمسة ومع صوت الراديو الزنان فى حوارات صامتة تهز أبراج عقلى التى باتت متصدعة من حالها. فلما أجلت تنفيذ القرار للصباح وخرجت للنوم فى المندرة الخارجية بدا لى باب الحجرة كفوهة القبر الذى دفنت فيه أعز

أضلاع لحمى، لقد خرجوا جميعا من مقبرة إلى مقبرة فهل تراهم قد عاشوا يوما ؟!متى إذن حدث ذلك ؟! لقد كانوا جميعا مرضى بأنواع لا تعرف كنهها من الأمراض . .

جثثهم جميعا كانت تنفض التراب وتقبل نحوى على مصطبة المندرة متربة الوجوه غارقة فى الوحل تحدق فىَّ بعيون لا تعرف أى شىء مما كان بينى وبينها من ذكريات . .

فوهة فى الظلام تفح بظلام أكثف، ووفود من عفونة تزكم الأنف . . ظللت حتى الصباح أهذى بكلام غير مفهوم لى ولهذا نسيته . عند شروق الشمس شمرت عن ساعدى وأعملت الفأس فى الحجرة الخزنة بهمة ونشاط حتى حولتها إلى كومة من التراب . . .

بعدها جلست أبكى وأنتفض بصوت جاعر ، فالتم القوم حولى مذعورين يقولون إننى كنت أصرخ فزعا وأطالبهم بإنقاذ جثث أبى وأمى وإخوتى الذين انهدمت الحجرة فوقهم . .

يقولون كذلك إننى كنت أتنصل من عملية الهدم التى تمت، وأزعم لهم، والفأس فى يدى متربة، أن شياطين غريبة قد اقتحمتنى وهدمتها . .

ولقد صدقتهم، خاصة حينما قالوا إنهم نقلونى إلى المستشفى . . ذلك أننى ذات يوم لا يزال قريبا، وبعد غيبة تامة لا أدرى كم استغرقت من زمن، انتبهت فإذا بى أخرج من دار كبيرة، قيل لى إنها مستشفى المركز الجامعى، وأننى مكثت فيها زمنا طويلا، وقد تماثلت للشفاء .

انعتاق

كنت أمشى فى ممر عريض، فوق أرض خشبية ناعمة لامعة مزركشة مفروشة بسجاد فاخر وتتصاعد شيئا فشيئا بدرج متباعد وغير ملحوظ، من أمامى وحوالىَّ جماهير حاشدة ساكنة تجلس فى مقاعد وثيرة تحت أضواء كابية، لكن جميع الألوان بجميع درجاتها تظهر فى ملابسهم وأشكالهم وأجسادهم المتلاحمة. القاعة واسعة، مفرشحة بالمدرجات الملآنة عن آخرها.. فبدوت كصياد ماهر انتهى لتوه من طرح شبكة خرافية ها هى ذى لاتزال محلقة فى الفضاء محيطة بى ممتدة أمام ناظرى..

ثمة شعور يفعمنى بأن هذه الجماهير الحاشدة الساكنة فيها من يتعاطف معى بشكل ما، فى شىء ما. يلوح لى أن بعضهم يلوى عنقه يشيعنى بنظرات متسائلة، لعلها مندهشة، لعلها مستنكرة، لعلها مشفقة، لعلها هازئة، أو ربما كل ذلك. إلا أننى جعلت أنقل خطواتى فى حذر وتمهل خوف أن تباغتنى إحدى الدرجات فأتعثر فيها، متذرعا بالوقار لصد هجمة النظرات سيما وأننى لست أعرف شيئا عن هذه القاعة ولا عن طبيعتها وطبيعة هذه الجماهير الحاشدة الساكنة فى انتظار يشوبه ـ فيما يبدو ـ الترقب والتوجس..

وكنت واثقا أن من خلفى خشبة مسرح حافلة بديكورات مهيبة مزدانة بألوان من الضوء المبهر ولا يدور فوقها أى شىء على الإطلاق.. أشعر

عن يقين راسخ أننى قد غادرت هذه الخشبة منذ هنيهة واتخذت طريقى مباشرة إلى الممر الذى أمشى فيه الآن . . أما لماذا كنت على خشبة المسرح منذ هنيهة مضيت؟ وما الذى كنت أفعله أو أقوله على وجه التحديد، ثم لماذا غادرت خشبة المسرح على هذا النحو ؟ كل ذلك لا حضور له فى ذهنى مطلقا. كل ما أعيه الآن أننى يجب أن أخرج من هذه القاعة فورا دون إبطاء، وأننى غير نادم على أى شىء فيها. على أن شعورا بالانقباض الحاد راح يفرك قلبى لبرهة وجيزة شعرت فيها بمدى فداحة ما أصابنى من خسران مبهم ومخيف. سرعان ما أن انفكت القبضة عن قلبى، سحبها طائف من شعور كالخيال الملتهب فى برهة حالكة، وثمة هسهسة حميمة طروبة مرحة راحت تجلجل فى صدرى فبدت لى كالبلسم كالترياق كنبوءة عراف عتيق شاخص يهيب بى أن لا تحزن فليس ثمة من خسارة فى الأمر على أى نحو من الأنحاء. فى الحال رأيتنى فى الخلاء، من خلفى باب لابد أنه باب تلك القاعة وأمامى ميدان مرصوف واسع لامع تسفعه ريح طرية لطيفة مشبعة برائحة اليود آتية من بحر تبدو فتات زبده على مشارف البصر. مرق من أمامى رهط من رجال ونساء بملابس المصيف يحملون الشماسى والكراسى المطوية. راحوا يلوون أعناقهم نحوى يتأملونى فى بشاشة وغبطة وأتأملهم فى استلطاف وابتهاج. . ما إن ابتعدوا فى اتجاه البحر حتى تذكرت وجوههم وتأكد لى أنهم لفيف من زملائى القدامى فى المدرسة الثانوية، فاندفعت أركض خلفهم محاولاً اللحاق بهم وفى ذهنى يدور شريط قديم من أحداث حميمة فيما يحاول ذهنى ربط الصور بالأسماء.

السهام الجائعة

وأنا داخل من ميدان السوق إلى شارع الإمام محمد عبده فى الظهيرة حيث حرارة الشمس تكاد تجفف الأبدان؛ لمحتها قادمة من آخر شارع السوق. بدت غريبة على هذه المنطقة الأثرية العتيقة التى اختلطت فيها البيوت بالمقابر، وألوان من السياح الأجانب بأولاد البلد المتماهين معهم من عشاق السياحة الداخلية حتى ليختلط الأمر على من يرى الجميع فلا يفلح فى التمييز بين هؤلاء وأولئك، كما يختلط الأمر على الجميع فلا يميزون البيوت من حيشان المقابر، ففى هذه وتلك ألوان من البيع والشراء: محلات حرايرية تنسج الخيوط الحريرية والأقطنة وما يسمى بالقصب الذى تزخرف به العباءات والملابس المنتمية للقرون الوسطى مما يباع إلى اليوم فى معارض حى خان الخليلى بجوار مسجد الحسين. دكاكين بقالة.. مطاعم للفول والطعمية والكشرى.. بوتيكات.. ترزية.. ورش للحدادة وسمكرة السيارات والميكانيكا والكهرباء وصناعة الأوانى من الزجاج والألمونيوم.. مكوجية.. مقاه شكلها جميل وعتيق معا، ترتكن بجوارها نعوش تحت الطلب وأراجيح يزأط حولها الأطفال.. مدرجات فاكهة على الأرصفة.. عربات يد تعرض الخضراوات والبطاطا المشوية ساخنة والترمس والتين الشوكى.. نساء صَدَآت من نومهن فى فساقى المقابر فى أحضان جماجم وعظام وبقايا رفاتٍ مضت على دفنها قرون زمنية حتى

انقرضت أسرها ولم يبق لمقابرها صاحب يزورها أو يطلب الدفن فيها، فباتت مدفنا مناسبا لأحياء لا يجدون لأنفسهم مأوى سواها؛ هاتيك النساء يربضن على الأرض أمام ركية نار لشوى كيزان الذرة.. نساء أخريات نظيفات بعض الشيء بارشات على عتبات البيوت يتناحرن مع بعضهن، ويصرخن مناديات على عيالهن المنطلقين نصف عرايا فى الشوارع يشحذون أو يخطفون أو يقطعون الطريق على من يشتبهون فى أنهم من الخواجات السائحين فيقولون لهم جبت بقشيش.. صبايا بقايا من جَوارٍ شركسيات حبشيات فارسيات روميات أرمنيات تركيات رائحات جائيات يملأن الجرار والصفائح والبلاليص والباستلات من حنفية الصدقة، لم يبق فيهن من أصولهن القديمة سوى شفرة أو كلمة سر تلمع فى العينين فى لون البشرة فى خرطة الجسد..

كانت تقترب نحوى وأنا أشرع فى التحويد إلى شارع الإمام محمد عبده: تحفة بشرية سافرة، تبدو كأن جدران بيت أو ستائر قد أزيلت من حواليها دون أن تدرى فلم تجد وقتا ولا فرصة للاستتار، بل لم تجد فى متناول يديها ملابس تليق بالخروج.. كل ما فوق جسدها «بلوزة» حريرية بغير أكمام، فالصدر والظهر والإبطين كل ذلك مكشوف تماما.. وسروال من سراويل المنامات يشف عن لون الجسد وعن حجم «الكيلوت» كمثلث صغير أسود، كتوقيع بالفلوماستر الثقيل فى أسفل اللوحة.. الجسد بض متختخ، والوجه قمر ململوم الشعر مبروم الجدائل على شكل قبعة شقراء.. تمسك بيمناها محفظة نقود فى حجم كف اليد.. تمشى متبخترة كالطاووس النشوان، لابد أن هذه هى المشية التى صورها شاعر الأطلال بقوله: واثق الخطوة يمشى ملكا، ظالم الحسن.. إلخ.

المشية إذن مصرية بشهادة القصيد المغنى. صحيح أن هذه المنطقة يؤمها سياح من جميع ألوان البشر، لكننى لم أر فى نسائهم مثل هذا العرى أبدا؛ إنهن يكشفن ما يمكن كشفه من الأطراف التى أصبحت من طول كشفها مألوفة وغير مثيرة؛ أما هذه المقبلة نحوى فإنها تغلف العرى بغلاف شفاف أكثر إثارة من العرى نفسه. تذكرت أننى كثيرا ما رأيت فى هذه المنطقة مناظر عرى سياحى ومحلى أشد من هذا، والطريف أنه لم يكن يثير إلا بعض عجائز القوم الذين يقولون عن أنفسهم فى قليل من التحسر إنهم قد «سلموا النِّمَر» منذ وقت طويل مضى، يعنى لم يعد للإثارة أى جدوى عندهم؛ أما شبان المنطقة وصبيانها فكانوا يرشقون هذه المناظر بعبارات السخرية والتريقة.

تذكرت أننى قطعت صلتى بهذه المنطقة منذ أكثر من عشر سنوات.. سألت نفسى مندهشا فى كثير من السخرية: ما الذى أتى بى إلى هنا بعد القطيعة التامة؟ وكيف جئت؟ وأين ركنت سيارتى التى لابد أننى قد جئت بها؟.. عندئذ رأيتنى قد صرت فى شارع الإمام محمد عبده، وهو شارع جانبى يتفرع من ميدان شارع السوق.. رأيت محمد بهجت صاحب المقهى الذى كنت قد ولفت عليه طوال ما يقرب من عشرين عاما أجلس فيه أكثر مما أجلس فى بيتى مدفوعا بالرغبة فى تأمل الحياة فى هذه المنطقة الغنية بالنماذج الإنسانية حيث التبست فيها مظاهر الحياة بمظاهر الموت، حيث جدران المبانى العتيقة الآيلة للسقوط من مدارس ومساجد وخنقاوات وتكايا وبقايا مقابر أثرية وأضرحة ومدائن.. كل ذلك يضج بالحياة والحيوية فيما العمائر الحديثة علب من الأسمنت الميت الأخرس، كما أن البشر الأحياء فيها موتى منذ أزمنة بعيدة وإن كانوا يأكلون ويشربون ويتسولون.. هكذا يرى الزوار القادمون مثلى من خارج المنطقة، حيث

ترسبت هنا فى هذا القاع نُقول حضارة شاخت واكتهلت وأصيبت بتصلب فى الشرايين ثم بالكساح فلم يبق منها سوى نفث هزيل فى روح ما تبقى من الأبنية والأشياء الأثرية النابضة بأنفاس القدامى من أولى العزم الجبابرة . .

ها هو ذا محمد بهجت يرانى من بعيد وهو واقف يكسح بالمقشة بقايا المياه التى مسح بها بلاط المقهى، يدفعها نحو بالوعة تحت رصيفه . ابتهج كعادته كلما رآنى، استقام قوامه السمهرى بوجهه العرباوى الأصيل والمنسوخ بدقة من وجوه عرب الحجاز ومنطقة عسير، لم يغادر غبار الصحراء ولا صدأ الشمس بشرة وجهه رغم ما يبدو عليه من مظهر نعومة فى مقدمة أنفه المستقيم وجبهته البارزة تحت شعر متجعد ممدود إلى الأمام كالسقيفة، كالتندة . . ابتسامته الناضحة باشتياق صادق رفعتنى من الأرض إلى رصيف مرتفع لدكان بقالة كان فى الأصل حوشا لمقبرة انقرض أصحابها فآلت ملكيتها إلى التُّربى فأحالها إلى بيت ودكان لابنه . .

كنت بالفعل مشتاقا لقعدة محمد بهجت ولمشاريبه ذات النفس الطيب : قهوته وشايه وشيشته لها شمخة حريفة كبداوته كحكاياته الطريفة الشائقة ذات الطابع الصحراوى الخشن على الرغم من أنه مولود فى القاهرة أبا عن جد، وإن كان ملما ـ بما يشبه الفولكلور ـ بجذور قبيلته البعيدة فى الحجاز . . ها هو ذا يختفى من ناظرى كأن الأرض انشقت وابتلعته؛ تلك هى عادته دائما إذ يظهر فجأة ويختفى فجأة، وما بين الاختفاء والظهور تتألف قصص غاية فى الطرافة يجد لذة فى أن يحكيها لنا، عن دائن له لمحه من بعيد، عن مخبر سرى يلاحقه من أجل إتاوة يفرضها على أصحاب المقاهى، عن امرأة ضحكت له فتبعها ليعرف خبرها . .

فوجئت بالمرأة نفسها قد ظهرت من حارة جانبية غير متصلة بشارع السوق، فكيف وصلت إلى هذه الحارة؟! . . ياللجنون: ها هى ذى نفس المرأة بنفس الهيئة تظهر من حارة أخرى مقابلة!! هن إذن أكثر من واحدة؟! ولكن كيف يكُنَّ نسخا طبق الأصل هكذا؟! . . تشعبطت عيون المارة فى هذه وتلك، توالت التعليقات:

ـ «بالوظة! قشطه يا ناس!».

ـ «بعيدة عن شوارينا!».

ـ «ما شكل ذلك المحظوظ الذى يستمتع بهن؟!».

ـ «أصحاب المال! بالمال يحصلون على كل شىء!».

ـ «اللعنة عليهن جميعا!».

ـ «اللعنة على الفقر!».

ظهر محمد بهجت وهو يلاحق المرأة بنظرات اشتهاء هاتفا: «اوعدنا يا رب». هل نسى أنه رآنى منذ برهة؟ هذا هو الواضح. تذكرت أننى كنت أحتفظ عنده بمجموعة من الخراف لتسمينها فى حوش يملكه ها هنا، وأننى قد علمت من مصدر ما أنه اضطر لذبحها أثناء فترة غيابى دون أن يكلف نفسه مشقة البحث عَنى لإبلاغى بما سيفعل. . بدا لى أننى غير مستاء مما فعل، فأنا فى الواقع لست متذكرا على وجه التحديد متى أودعته أمانة الخراف ولا ما هى الظروف التى حدت بى لأن أفعل ذلك. . إنما استأت حقا من شعورى المفاجئ بأن أحدًا من أهل المنطقة لم يعبأ بى على غير العادة حيث كنت من قبل لا أستطيع المرور خطوة بعد خطوة إلا إذا توقفت لأسلم على عدد ممن يقابلوننى وعلى مجموعات يجلسون على المقهى أو

أمام فروشات الفاكهة والخضراوات، فما بالهم اليوم لا يهتمون بى؛ عزوت ذلك إلى أنهم لا يروننى، مما جعلنى أتلكأ فى خطوى وأتوقف طويلا فوق الأرصفة العالية كهذا الذى أقف عليه الآن معرضا نفسى لأنظار المارة وأصحاب الدكاكين لعلهم يتذكروننى، ولكن دون جدوى كأنهم جميعا قد تعاهدوا على عدم النظر نحوى وتجاهلى كأننى غير موجود. .
جاءنى الإحساس البكر الذى كان يعودنى فى بداية اكتشافى لهذه المنطقة: إحساس بأننى قفلت من عصور حديثة واندسست فى قاهرة العصور الوسطى؛ كان مقياس التخلف هو الجدار الزجاجى الفاصل بينى وبينهم حيث أراهم وأشعر بهم فى حين يرونني ولا يشعرون بى، يرونني كلعبة حداثية، كشىء طريف لا علاقة لهم به من قريب أو بعيد؛ وكان ذلك الجدار الوهمى سريع الانهيار بين لحظة وأخرى أمضيها بينهم، يكفى أن أتبادل الحديث مع أى واحد منهم حتى يمتد بساط الألفة العميقة بينى وبين الآخرين حتى بتنا جميعا كجسد واحد بعقل واحد ذى مستويات متفاوتة فى الفهم والتفكير والاستيعاب، ترى هل أنا الآن قد غدوت البقعة الحية أم الميتة من هذا العقل؟! . . ظهر محمد بهجت من جديد يحمل على كتفه خروفا مذبوحا مسلوخا يَشُرّ منه خيط ثقيل من الدم يكتب على الأرض خط سيره من لحظة خروجه من الحوش العتيق القابع خلف المقهى. .
توقف به عند الصنبور البارز من حائط المقهى فوق حوض من السيراميك ملتحق برصيف المقهى، وذلك لرش أرض الشارع عند اشتداد الحر فى الظهيرة ولإخماد التراب فى ريح العصارى تمهيداً للقعدة فى الهواء الطلق وفى نفس الوقت كسبيل يشرب منه السابلة فيسجلون لصاحب السبيل ثوابا ينفعه عند الحساب يوم القيامة. على هذا الحوض وضع محمد بهجت لحم الخروف وفتح عليه الصنبور وجعل يغسله بلذة واستمتاع. . فى فتحة باب

لصق الصنبور ظهرت امرأة قادمة من الداخل، تبعتها امرأة أخرى يبدو أنها ابنتها، وقفتا ترقبان الخروف المذبوح بنظرات حسودة؛ قالت الأم من بين أسنانها فى حقد: «ده انت طلعت فيها واتعدلت يا ابن وهيبه! كل يوم تدبح خروف!»، علقت ابنتها بنفس اللهجة: «ما يدبحش ليه؟ طول الليل يلم فلوس من حريق الحشيش!». لحظتئذ كان محمد يرفع الخروف عن الحوض بصعوبة نظرا لثقله من ناحية ولأنه يتزفلط من ناحية أخرى. أخيرا حمله على صدره كيفما اتفق ومضى نحو باب البيت المواجه لباب المقهى، فتعثر الشبشب فى طوبة، تزفلط الخروف، تدحرج على الأرض بشكل غاية فى الغرابة، نط، قفز كأنه يطلب الهرب أو النجدة حتى وصل إلى قمة الدحديرة فصار يتدحرج بسرعة هابطا إلى القاع البعيد فيما كانت إحدى الشاحنات التريللات قادمة مندفعة لتتمكن من صعود المنحدر بسهولة، داست الخروف، بططته، سوته بالأرض. توقفت الشاحنة، نزل السائق، تبادل الشتائم واللكمات مع محمد؛ تجمع الناس وأخذوهما إلى بعيد حتى اختفوا عن الأرض الواقعة تحت مجالى البصر فيما بقيت الشاحنة واقفة فى مكانها وقد أحيطت بفريق من عشرات الكلاب راحت تتناحر وتتقاتل وتنهش لحم الخروف المشتبك بالأرض.. عندئذ مر بذهنى خاطر ساخر نبهنى إلى أن مرور عشر سنوات على خرافى أمر كفيل وحده بإسقاط حقى فيها..

امتلأ الشارع بالسيارات واحتشد الفضاء بضجيج أصوات آلات التنبيه حتى صارت الأرض تهتز؛ تلاحمت، بدا أنه من المستحيل فك اشتباكها.. بدا لى أننى واقف هكذا منذ ما يقرب من نصف قرن من الزمان. رأيت أن أدفع الملل بالسير لعلنى أكتشف فراغا بين سيارتين أعبر

منه إلى الجانب الآخر حيث يوجد المقهى. فوجئت بالمرأة نفسها، أو بنسخة طبق الأصل منها، تمر من على بُعد من خلل سيارتين كنت أظنهما متلاحمتين، فهرولت فى اتجاهها لكى أمرّ من نفس الفرجة. حين نجحت فى المرور إلى رصيف المقهى فوجئت بمحمد بهجت وأخيه شكرى وابن خالتهما سعيد وابن خالهما عثمان؛ كانوا فى حالة من الحقد المرح؛ لم أر فى حياتى حقداً يُضحك مثل هذا. قال محمد:

ـ «يا من يلايمنى! لابد أن يحطوها لى فى طبق وأمسك بالشوكة والسكين أنزل فيها حتتك بتتك حتى العظم أمصمصه!».

قال سعيد المتدين وهو ممسك بعضوه كأنه يعتقله:

ـ «يجب رجمها بالحجارة على هذا العرى!».

قال شكرى ساخرا:

ـ «لأنك لا تطولها تطلب رجمها!».

قال سعيد مغتاظا:

ـ «إنها تحملنا الذنوب بالمجان!».

قال عثمان بشىء من الحكمة:

ـ «يا أخى أغمض عينيك فلا تراها حتى تنكشح!».

صاح محمد:

ـ «ومن الذى يرى هذه القشطة ويغمض عينيه؟!».

شاغبه شكرى:

ـ «سيبوا الملك للمالك وكل واحد يكون فى حاله!».

تابعت هذا الحوار بشغف؛ وكنت أعرف سلفا أن التربية على الكبت وراء كل سلوك معوج شرس إجرامى؛ ولكن ما أدهشنى هو أن عينىَّ وقعتا فى عيونهم أكثر من مرة فلم يعرفونى، فدارت بى الأرض ومشيت غاضبا أترنح. رأيتنى عند الباحة الواسعة التى اعتدنا أن نركن فيها سياراتنا عندما كنا نجىء للسهر فى هذا المقهى. كان المنظر عجبا أى عجب: المرأة التى أحاطت عريها بغلالة شفافة، والتى التقيت عدة نسخ منها صارت أكثر من عشر نسخ تم رفعهن على خوازيق مدكوكة فى الأرض، وقد امتلأت الساحة بخلق عظيم لا حصر له، كانوا جميعا مسلحين بالنبال، والرءوس كرنفال من الألوان: عمم وطرابيش وطواقى وكلابيش ولبد.. جميعهم فى استغراق وجدية راحوا يحكمون النشان على أجساد النساء المصلوبات؛ أصوات السهام والحراب تزغرد وهى تشق أجواز الفضاء لترتشق فى كتف امرأة، فى رقبتها، بين ثدييها، بين فخذيها، فى سرتها، فى كل بقعة فى أجسادهن جميعا ارتشقت سهام صارت كالغابات. العجيب المذهل أن النساء كن يتلقين السهام متأوهات، مجرد تأوهات مقطوعة كأنهن يخجلن من عورة أصواتهن إذا صرخن.. كانت خيوط الدماء تنزل عمودية حمراء قانية حجبت أجساد النساء بثياب دموية ثقيلة لا يبين من تحتها شىء.

خيل لى أننى لمحت على وجوه بعض هاتيك النساء ملامح تكاد تشبه ملامح تَمُتّ لى بصلة قربى، لعلها أم أو أخت أو خالة أو زوجة خال أو زوجة صديق. أخذت أصرخ من شدة الفزع فتضيع صرخاتى تحت أقدام تنين خرافى بملايين الأذرع والأقدام والأفواه والعقول الحيوانية الشرسة،

وتتلاشى فى أصوات الحراب والسهام التى لا تنى تنطلق من جميع الجهات فى تصويب محكم على المناطق الحساسة المثيرة فى هذا الجسد المنسوخ المتكرر. كانوا يفعلون ذلك باستمتاع كاستمتاع محمد بهجت وهو يغسل لحمة الخروف. وكان صراخى يزعج المحيطين بى فيرشقوننى بنظرات تقطر سخرية واتهاما بأننى - لا شك - أعانى من نقص فادح فى الرجولة!!

واحد مصرى

بين تلال جبل الدَّراسة وأطلالها القديمة المتداعية أقام صديقى سمكرى السيارات ورشته فتبعه العشرات، فما لبثوا حتى أوجدوا تجمعا صاخبا يعج بالحركة والضجيج المحبب لدى المصريين، وأقام صديقى غرزة ملحقة بورشته عبارة عن خص من مخلفات الخردة، يديرها قهوجى نظيف. وقد أدمنت القعدة فى هذه الغرزة لساعات طويلة كل يوم مسحوراً بهذه العينات من الأنماط الإنسانية الفريدة التى إن رأيتها وأنت ابن القرن الحادى والعشرين تخيلتها من بقايا عصور موغلة فى القدم، ولابد أن يصيبك العجب العجاب من سر استمرار هذه الكائنات إلى اليوم متكيفة مع مظاهر التقدم التى تحيط بها. فى القعدة اليومية تخلقت صداقة وطيدة بينى وبين «أبو ميمى»، الذى كان من أقدم أصدقاء السمكرى. منظر أبو ميمى ينتمى إلى العصر المملوكى، بعمامته الدائرية الصعيدية الكالحة وجلبابه البلدى ذى الكم الضيق، وفى قدميه حذاء من البلاستيك؛ تراه أحيانا يقف فى انتظار ابنه ـ طالب الإعدادية ـ الذى شبط فى أتوبيس ومعه قفص فارغ سيملأه بأرغفة الخبز الساخن من فرن بعد محطتين، وتجده أحيانا أخرى مقعيا فى مدخل طلل على ناصية وأمامه سبت (سلة) من شرائح البوص فيه شروة بلح أمْهات منتقاة بالواحدة، وسوف ينتهى من بيعها فى دقائق لعمال الورش الذين يتغدون بالجبن القديم بالمش المعتق ومعه العنب أو البلح

الرطب. هذه فى الأصل شغلة زوجه أم ميمى، ولكنه لا يجد أى حرج فى أن يحل محلها حتى تنتهى هى من غسيل الثياب وشغل البيت. أما شغلته فإنه عربجى يسرح بالعربة الكارّو بين الأسواق، وبالمرة يتسوق لزوجه أى شروة فاكهة أو خضراوات. لقد عشقته حقا، كان تشخيصا للمرح المصرى فى صورته المطلقة، وكان حلو الصوت، إذا تجلى وغنى لحن أمل حياتى فسوف ينسيك أم كلثوم بما فى صوته من حمولة من الشجن الحيوى والمشاعر الدافئة المشعة بالبهجة؛ يقتسم معك لقمته وحشيشته وأفيونته ويعزمك فوق البيعة على واحد شاى. أثناء سهراتنا الممتدة حتى صلاة الفجر فى الحسين كان العمل دائرا على قدم وساق فى مشروعين خطرين: استكمال وصلات كوبرى سته أكتوبر، وهى كالأخطبوط المعمارى بمداخل ومخارج تتكون منها شبكة الطريق الدائرى حول القاهرة.. أما المشروع الثانى فهو شق طريق الأوتوستراد الموازى لصلاح سالم، وهو طريق سريع يصل بين حلوان ومطار القاهرة. وكانت الفرصة متاحة لأن يشتغل أبو ميمى وعربته الكارو بحصانها العفى فى نقل أحجار وأتربة بأجور مجزية؛ لكنه رفض لأننا طوال الليل والنهار نشهد من قعدتنا البلدوزرات المهيبة تخترق مقابر المجاورين وتحرث أرضها بأسنان حداد فتتناثر أمامها عظام أذرع وسيقان وجماجم بشرية يدوسها الدكاك الآلى ليسوى بها الأرض. فتسرى النار فى أفئدتنا وينتفض أبو ميمى؛ وما إن يطلع الصباح حتى يمر على الورش يجمع قروشا على سبيل التبرعات لفعل الخير، ثم يشترى أمتارا من قماش العبك يخيطها بنفسه صانعا منها شكائر، ثم يجمع بعض الصبية ويغوص فى أرض المقابر المحروثة يجمع العظام كلها يعبئها فى الشكائر ثم يغلقها بالخيط، ويفحت لها فى بقعة بعيدة ثم يدفنها ويردمها بالتراب ثم يعود إلينا وهو ينفض يديه فاشخا حنكه

بابتسامة أسيانة . وفي يوم فوجئنا بأن ورش الدراسة مطلوب إزالتها في الحال ؛ وقد كان ، فتفرق شملنا ، ثم شغلتنا الهموم والأيام سنين عددا . وذات عصرية مبهجة حلا لى أن أركب بسيارتى متن هذه المراحل الجديدة من كوبرى سته أكتوبر من المحور إلى مدينة السلام إلى مدينة نصر . كنت سعيدا حقا بهذا الإنجاز الكبير ؛ وإذا بسيارة سوزوكى نصف نقل تطاردنى على الكوبرى ثم تلحق بى ، ويطل منها وجه مألوف ينادى بصوت أكثر ألفة : «اركن على جنب يا أستاذ!» ، فامتثلت في الحال وحضّنت على الرصيف ونزلت ، لأجد سائق السوزوكى يهرول نحوى ويرتمى في أحضانى ، إنه «أبو ميمى» ، صرنا نضحك بعمق دونما سبب واضح ؛ وكان أول شيء فعلته بعد أن كففنا عن الضحك أن أشرت بيدى في ابتهاج إلى السوزوكى النظيفة الجميلة وقلت في طرب حقيقى : «حلو اللى انت عملته ده» ؛ فأمّن على قولى بهزة من رأسه صائحا : «الدنيا بتتطور يا سعادة البيه» ؛ ثم تبادلنا أرقام الهواتف المحمولة .

الصفحة الثانية

في مثل هذا اليوم ـ الأحد ـ من كل أسبوع يكون احتشادي قد وصل إلى ذروة تمكنني من كتابة مقالي الأسبوعي لمجلة «الإذاعة والتليفزيون» الذي أحرص على كتابته بكل تركيز وصفاء، هما ـ إذ يتحققا ـ مصدر لذتي الوحيدة في الحياة، وطوال ما يزيد عن ثلاثين عاما لم يحدث أن صدر عدد واحد من المجلة بدون مقالي المزدان بصورتي واسمي بخط كبير، والمفرود على صفحتين قامت بيني وبينهما علاقة حميمة حتى بتُّ أشعر أنهما بيتي ومأواي ومنور أنفاسي، وربما ـ كذلك ـ مثواي الأخير. دائما أبدا هناك أكثر من عنوان يشاغبني طوال الأسبوع، أعطي نفسي لكل العناوين، لكن عند الشروع في الكتابة يكون الكائن المعقد الذي يسكنني ويكتب لي قد حسم الأمر منجذبا إلى العنوان الأكثر غنى وحميمية ووضوح سكك. المسئولون عن تنظيم تحرير المجلة واثقون تمام الثقة في أنني لابد أن أسلم المقال في موعده حتى وإن كنت محمولاً على محفة، لا يقلقون إن تأخرت ساعات قليلة؛ واثقون أيضا من أمانتي وحسن تقديري للمسئولية فيما أكتب، حتى لقد ينزل «الماكيت» إلى المطبعة ممتلئ الصفحات إلا صفحتيّ؛ عندئذ أتوجه بالمقال إلى المطبعة رأسا فلا أغادرها إلا بعد جمعه وتصحيحه، وربما قراءة بعض فقراته في الهاتف على رئيس التحرير.

ليتنى ما مررت على المقهى عصر ذلك اليوم . هناك التقيت رهطا من أصدقاء الصبا الذين فرقت الأيام والشيخوخة بينى وبينهم فلم أعد ألتقيهم إلا صدفة ذات شأن يجمعهم . وهى دائما صدفة سعيدة ، فمثلما الذكريات الجميلة يوقظ بعضها بعضا ، هكذا المشتركون فى الذكريات يستدعى بعضهم بعضا دون تدبير سابق ، يكفى أن يتلاقى اثنان أو ثلاثة على مقهى أو فى حفل أو مناسبة ، إذ المؤكد فى تسعين من مائة من الحالات أن يتوافد بقية أعضاء الشلة الحميمة واحدا وراء الآخر كأن هاتفا خفيا أوعز لكل منهم على حدة بأن يقوم الآن ويذهب إلى المكان الفلانى ، أو لعله كان ماراً بقربه فشدته الذكريات إليه . وهذا ما قد حدث يومذاك : ما إن احتوانى كهف الذكريات مع إبراهيم وفكرى وكمال ، واستشعرت الدفء فى برودة كوب الجعة المضبب ربما بكثافة الذكريات لا من الثلج ، حتى فوجئنا بإسماعيل يطب علينا . ما كادت أحضاننا تنفصل حتى فوجئنا بنجيب وهانى وهشام يقفون فوق رءوسنا مأخوذين بحلاوة المفاجأة . كل واحد فينا كان لا يقصد المجىء إلى هنا على الإطلاق ، لكن دافعا خفيا قادنا جميعا إلى هنا بشكل أو بآخر . هطلت علينا الأكواب والزجاجات واللفافات بغزارة هطول العواطف السخنة الحريفة بعد اشتياق عميق . ضحكنا من القلب حقا ؛ رأينا بعضنا فى مرايانا ؛ نضوج التجربة وحكمة السنين فسرا لنا الكثير مما استعدناه من مواقف عشناها وعبارات قلناها ومحاولات كتبناها وأزمات كابدناها وأخطاء قد اقترفناها . .

أفرخت الذكريات وضوعفت فراخها ، فازدحمت بها المائدة الضيقة ، ثم ضاق المقهى بها وبنا . تلاقت أعيننا على شعور مشترك بضرورة أن ننتقل إلى مكان رحب نمدد فيه هذه الذكريات ونفرد ثوبها الذى لا تنى مغازلنا تنسج فيه بقوة ونشاط لا تستطيع قوة فى الأرض أن توقفهما . نظرات

إبراهيم أوحت لنا بأن بيته فى منيل الروضة هو أنسب مكان لنا فى تلك اللحظة، فإبراهيم يسكن بمفرده فى قصر عتيق حيث رحل أبوه ومن ورائه أمه وهاجر أخوه الأصغر إلى لندن أستاذا بجامعة أكسفورد. تعاركنا عند دفع الحساب للجرسون الذى وقف حائرا لا يدرى من أى يد يأخذ، لكن هانى أراحنا جميعا ودس فى جيب الجرسون بضع عشرات ثم تقدمنا بقامته الفارعة. كلٌ منا ركب سيارته الخاصة، وكل منا توقف فى الطريق واستبضع مأكولات ومشروبات يعرف مدى قيمتها لدى المجموعة. .

فى عز الانتشاء الحقيقى فى أصفى حالاته وتجلياته سحبت القلم لأدون رقم هاتف إسماعيل الجديد، فتذكرت فى الحال أننى لم أكتب مقالى الأسبوعى، فكأن نبوتا هوى فوق دماغى فشرخها، تاه صوابى، تبخرت البهجة كلها فى لمح البصر كأن لم تكن. مرتعبا نظرت فى ساعتى؛ العقرب كان يشير إلى الثالثة صباحا، ياللكارثة، أين الحيوية التى سأكتب بها؟ انزعج إبراهيم من منظرى، ظن أنى أقاوم شعورا بالتعب. .

ـ «تشرب كوبا من الليمون؟».

نظرت نفسى واقفا فى اضطراب:

ـ «لا تؤاخذونى يا جماعة! لابد أن أنصرف الآن فورا!».

حملقوا فى وجهى باستنكار ينضح بالترقب والتوجس متوقعين أن يكون انصرافى هذا المفاجئ لأمر شديد الخطورة. قلت بجدية بلهجة من يشعر أنه قد فرط فى عرضه:

ـ «لم أكتب مقالى الأسبوعى بعد! نسيته، ولكن لا مفر من كتابته، وإلا سأتسبب فى خراب بيوت ناس لا ذنب لهم!».

الضحكة الصاعقة النشوانة، الجماعية كصوت تنين خرافى، زلزلتنى، نفضتنى. بدا السبب تافها جدا فى نظرهم لدرجة أن ذراع هانى امتدت فوق كتفى وضغطت يده فأجلستنى بالقوة:

ـ «مقال؟ هذه نكتة! نتلاقى بعد سنوات من الفُرقة ثم يتركنا من أجل مقاله الأسبوعى؟».

ـ «صدقنى، أنت تبتذل نفسك بالكتابة فى مجلة خفيفة لا هدف لها سوى الدعاية لبرامج الإذاعة والتليفزيون! متى تعرف أنك أديب محترم؟!».

ـ «عيبه أنه لا يزال يأخذ مسألة الكتابة فى الصحف السيارة بجدية! يا رجل! كتابة إيه وهباب إيه؟ الناس فى مصر توقفوا عن القراءة! وإن قرأوا لا يفهمون شيئا!».

ـ «هذا عصر الخفة والابتذال! عصر المهرجين واللصوص ونواب القروض والمحتالين فى توظيف الأموال وغسيلها وتهريبها!».

ـ «لايمنى عَ الفكه! الناس لا تحتاج اليوم للأدب والفن! إنهم يحتاجون الرغيف! يدبرون قوتهم بكل نفس ضايقها الهوان!».

ـ «أنت يا ما كتبت! خمسة وثلاثون عاما لم تكف طوالها عن الكتابة وتبديد قوت عيالك فى شراء كتب وأوراق وأحبار وأقلام! فماذا أخذت غير الخوازيق؟ لو كنت قد سرحت بعربة فول مدمس أو ترمس لكسبت فى اليوم ما تتقاضاه ثمنا لكتاب مقفت فيه عينك وهدرت دمك! يا رجل لا تقلب المواجع فينا! أفق لنفسك وشف مستقبل عيالك!».

- «ألا تأخذ لك عبرة من الأجيال السابقة؟ قل لى ما الذى أخذه توفيق الحكيم بجلالة قدره؟ مات فقيرا ودفنت أمجاده معه! طه حسين بكل خدماته لا يزال جثمانه يتلقى الطعان من الجاحدين فى هذا البلد. يحيى حقى ويوسف إدريس.. أين هما الآن من ذاكرة الإعلام المصرى؟».

- «لقد قالها حافظ إبراهيم صراحة فى واحدة من أشهر قصائده: فما أنت يا مصر دار الأديب.. ولا أنت بالبلد الطيب!».

- «اقعد! اقعد يا رجل! ساعة الحظ لا تعوض! هذه اللحظة التى نعيشها أجدى وأهم من أى مقال تكتبه! من أى كتابة!».

- «يا أخى أعط نفسك إجازة ولو لأسبوع واحد! من حقك أن تستريح! أنت إيه؟ ماكينة كتابة حديدية لا تتعب ولا تمل؟ حتى الماكينة يجب أن تريحها وإلا خربت!».

أصررت على الانصراف، بل تعمدت أن أكون فظا. هببت واقفا، ودونما سلام أو كلام اندفعت خارجا أحاول تذكر المكان الذى ركنت فيه سيارتى. اهتديت إليه بعد تلطيش مروع. صوت المفتاح فى كالون الشقة ضاع فى صوت أذان الفجر. وضعت رأسى تحت الصنبور ودعكته بالصابونة. جهزت فنجانا من القهوة السادة. جلست إلى مكتبى. قدمت نفسى للورق وللقلم. كنت ساخطا على نفسى وعلى الرفاق، فإذا بالسخط يمتد لينسحب على الكتابة نفسها. فعلاً.. لقد نجحوا فى تكسير مجاديفى، لقد اقتنعت بكل كلمة قيلت سيما وقد اتسمت كل الكلمات بالتلقائية والاندفاع العاطفى. فى تلك اللحظة كرهت الكتابة، احتقرت أن أكون كاتبا فى زمن لا قيمة فيه لأى قيمة على إطلاقها، زمن انتشرت فيه

الأمية كالأورام السرطانية فى جميع فئات المجتمع ؛ حقا أنى أصدق ما قالوه برغم مرارته العلقم ؛ إذ ماذا أخذت أنا من عمر أنفقته بسخاء على الورق؟ سودت آلاف الصفحات وعشرات الكتب بقلمٍ كان مداده دمى ودم عيالى ، ولكن هذه الصفحات الملعونة عجزت عن أنْ تسد رمقنا بله أن توفر لنا حياة كريمة ؛ أيها المفتون الساذج! قد ضحيت بالمكاسب المادية جريا وراء مكاسب أدبية راقية فلم تحصد غير الهشيم ، ولم تقبض سوى الريح كما ألمح من قبلك أستاذك المازنى . . وها أنت ذا بعد كل هذا الكفاح المرير قد تخطاك الزمن الوغد وخلفك صوتا صادحًا فى برية جرداء لا تتردد فيها ثمة من أصداء . .

ما أعجبنى وأغربنى رغم كل هذا الذى يمور فى صدرى ، أنى لا أزال أتعشم فى كتابة المقال . غير أن الأمر قد اختلف الآن ، فأنا قد صرت بالفعل غير مقتنع بجدوى الكتابة ؛ إلا أننى مرغم على كتابة هذا المقال فى التوّ واللحظة لإنقاذ زملائى الذين وثقوا فىّ من ورطة ستعرضهم للمساءلة وربما لعقاب سخيف ؛ حتى أوان الاعتذار قد فات منذ وقت طويل وليست ثمة من فرصة للبحث عن موضوع يملأ الصفحتين الفارغتين فى انتظارى فى المطبعة .

أخذت أقلب فى العناوين التى أزمعت الكتابة فيها ؛ دونتها فى ورقة ، جعلت أحسّن خطها بحروف كبيرة ، أنقلها من ورقة إلى ورقة كأننى أبغى تفتيتها ونزع قشرتها الصلبة عن الثمرة التى تحتويها ؛ صرت أكاد أشتال العنوان وأهبده فى الأرض لعله يتفتت إلى عناصر وأفكار يمكن الخوض فيها . . ولكن عبثا ، لا فائدة ، كل العناوين سخيفة سقيمة ، كل شىء فى هذه الحياة فى هذا البلد لا معنى له على الإطلاق ، اللعنة على الجميع بلا

استثناء بمن فيهم الذين أولدونا والذين علمونا والذين سحرونا بأساليبهم واقتادونا إلى متاهات نهايتها سراب فى سراب. خلاص، لن أكتب، هل أحرق نفسى؟ ماذا أفعل أكثر مما فعلت؟ لو كان عندى مقال قديم حتى ولو من محاولات الصبا لقدمته للنشر واسترحت؛ لكننى مع الأسف كنت كالمطحنة طوال عمرى فما طحنت إلا نفسى، كانت دمائى مفتوحة على المطبعة فى أنابيب موصولة لا تكف عن الضخ.

أما وقد سلمت بخستى فى عدم الوفاء بمسئولية تحملتها ما يزيد على ثلاثين عاما فإننى لا أقبل أن أكون خسيسا تماما؛ وإذن فلأقم من فورى لأوقظ صديقى مدير التحرير من النوم لأبلغه بأننى عجزت عن الكتابة، وسأبدى استعدادى للوقوف أمام باب المجلة حتى يفتح فأدخل إلى مكتبه وأتخير من المؤجلات موضوعا يملأ صفحتين وأقوم بتوصيله إلى المطبعة فلا أغادرها إلا بعد تمام طبع المجلة بكاملها. أمسكت بسماعة الهاتف؛ صوت إلهى قال لى: تمهل قبل أن تزعج الناس! قم الآن وغادر الشقة، انزل إلى الشارع لعلك تجد فيه ظلا من الإلهام! اجلس على أى مقهى فأنت قهوجى قديم تحب الكتابة فى المقاهى، فإن لم تفلح فى ترويض عقلك المتمرد فمن هاتف المقهى تتصرف فى اتصالاتك ويكون الوقت قد صار مناسبا للإيقاظ.

كان لون الصباح إردوازيا، والجو ربيعيا مفعما بنكهة الأنوثة وينضوى تحت سكون ناعم كالخديعة الساذجة. فى أول شارع القصر العينى صافحنى جو المقهى الشعبى المطلة شبابيكه على شارع القصر العينى وبابه يفتح فى الحارة الجانبية بجوار محل المعلم دبشة الجزار. حينما ركنت سيارتى أمامه داعبنى أمل فى أننى قد أجد ضالتى فى المعلم دبشة الجزار،

لقد كان من كبار ظرفاء عصره ووجها من وجوه أعيان رواد مقهى وبار اللواء المواجه لمبنى البنك الأهلى بين أعلام كبار يعملون له ألف حساب مثل عبد العزيز البشرى ومحجوب ثابت وإمام العبد وغيرهم؛ حدث أن كان الشيخ عبد العزيز البشرى يأكل بشراهة فى المقهى، وكان أهتم، فأشفق إمام العبد وقال له: يا شيخ عبد العزيز أنا قلت لك تعالَ أوديك للدكتور يعمل لك طقم سنان ولو على حسابى؛ فإذا بالمعلم دبشة الجزار يعلق قائلا: ما تتعبش نفسك، هو بيخاف أحسن الطقم يأكل معاه. ولكننى حينما فردت الورق لأكتب عن ذلك الجو الدافئ المرح بين الظرفاء ما لبثت حتى شعرت بسخف الموضوع وضآلته وضحالته. عندئذ شعرت بالجوع، المطعم المواجه للمقهى يقيم مهرجانا صاخبا برائحة الطعمية الساخنة يفتح الشهية؛ فكرت أن شريحة خبز بالفول وأخرى بالطعمية مع كوب الشاى شىء بديع..

وقفت بين ثلاثة رجال فى مدخل المطعم أنتظر دورى. فلما صار أمامى واحد فقط انتبهت إلى أن هذه التلال من الورق إلى يمين صاحب المطعم هى أعداد مرتجع مجلتى ومجلات أخرى، فانقبض صدرى إذ أرى بعينى أن المجلة التى أهرقت على صفحاتها دمى لم تعد إلا ورقا للف الأشياء.. و.. يا ربى!.. إن هذا الذى يحدث هو منتهى القسوة. رأيت صاحب المطعم ينزع ورقة ليقرطسها كى يضع فيها الطعمية التى طلبتها لأستمتع بأكلها منفردة. هذه الصفحة هى الثانية من مقالى الأسبوعى، وهذه صورتى تنبرم تحت يد الرجل؛ ها هى ذى أقراص الطعمية تبقعها بالزيت وتشوه معالمها.

تم تدميرى تماما، صرت هديما يفح منه الغبار الكثيف، صرت أبحث بين أنقاضى عن يد تمتد لتأخذ الرغيف وقرطاس الطعمية من الرجل..

ارتميت على الكرسى، لممت أوراقى وألقيت بها فى الحقيبة بحركة من يدق آخر مسمار فى نعش الكتابة. ثم فككت القرطاس فتناثرت أقراص الطعمية؛ صورتى صارت كبطشة زيت أسود لا معالم لها. تلك كانت صورتى وكذلك من الداخل، شعرت أننى مجرد ورم شائه بلا ملامح، قد ورمتنى الحياة وطمست معالمى، صرت كائنا بلا أصداء، وربما بلا ظل، خُيل إلىَّ أننى لو نظرت الآن فى المرآة فلن أجد فيها أى انعكاس لى، وقد غاب عن فطنتى أننى كلما رفعت رأسى المنكبة على الخبز والطعمية طالعنى رأس فى مرآة كبيرة فى برواز على الحائط المقابل..

كنت أبتلع دموعا سخنة، مذاقها أقوى من مذاق الطعمية الحريف. أمضغ فى سأم، أبلع بصعوبة، أستعين برشفة شاى، تتسكع نظراتى على كل المرئيات من حوالىَّ..

تلكأت نظراتى عند رجل يجلس قبالتى. هذا هو الرجل الذى كان يقف أمامى مباشرة فى المطعم. لكأن السماء قد أبرقت إثر تصادم للسحاب المتراكم بقسوة فوق صدرى. على ضوء البرق الخاطف انتبهت إلى أن الرجل مندمج فى قراءة الصفحة التى لُفَّتْ بها طعميته، كان يتوقف عن المضغ كثيرا ليمعن فى الكلمات التى راح يقرؤها بشغف واضح. وإذن فالقراءة غريزة إنسانية لا يمكن التنصل منها بأى حال من الأحوال؛ وإذن فالقراءة مرهونة بصدق المكتوب وجديته؛ ولابد أن هذا الرجل البسيط قد وجد فيما يقرأه ما يستحق أن ينكبَّ عليه هكذا. صرت فرحا به أكاد أقوم لأقبله فى رأسه. صرت أشب وأرفع رأسى محاولا رؤية هذا الذى يقرأ. أدفع عمرى لأعرف ما الموضوع الذى جذبه بكل هذا الاهتمام. يا إلهى! برق السماء صار سرادقًا من الضوء، هطل المطر فى صدرى فتشربته جميع

أعضائى باشتياق، السماء مزدانة بقوس قزح؛ كل ذلك لأننى تأكدت أن الصفحة التى يقرأ فيها الرجل هى على وجه التحديد الصفحة الأولى من مقالى الذى تتمدد صفحته الثانية تحت بقايا أقراص طعميتى. تراقصت جميع أطرافى وأنا أتابع الرجل كأنى عثرت على كنز ثمين يخصنى وحدى وأخشى ضياعه. عند آخر كلمة فى آخر سطر رأيت الرجل يقلب الصفحة تلقائيا بحثا عن البقية؛ فى لمح بالبصر صرت واقفا أمامه أقدم له الصفحة الثانية. رمقنى بابتسامة وبنظرة غاية فى الدماثة ومد يده ليصافحنى شاكرا، صافحته بحرارة، ثم عدت إلى منضدتى فسحبت الأوراق وقد صرت خلقا جديدا، وشرعت أكتب المقال عن كل هذا الذى قد حدث.

فهرس

عَدْل المسَامِير

راح يفرك قلبى لبرهة وجيزة شعرت فيها بمدى فداحة ما أصابنى من خسران مبهم ومخيف. سرعان ما انفكت القبضة عن قلبى، سحبها طائف من شعور كالخيال الملتهب فى برهة حالكة، وثمة هسهسة حميمة طروبة مرحة راحت تجلجل فى صدرى، فبدت لى كالبلسم، كالترياق، كنبوءة عراف عتيق شاخص يهيب بى ألاّ تحزن فليس ثمة من خسارة فى الأمر على أى نحوٍ من الأنحاء. فى الحال رأيتنى فى الخلاء، من خلفى باب لابد أنه باب تلك القاعة، وأمامى ميدان مرصوف واسع لامع تسفعه ريح طرية لطيفة مشبعة برائحة اليود آتية من بحر يبدو فتات زبده على مشارف البصر. مَرَق من أمامى رهط من رجال ونساء بملابس المصيف يحملون ا
والكراسى المطوية، راحوا يلوون أعناقهم نحوى يتأمل
بشاشة وغبطة وأتأملهم فى استلطاف وابتهاج.. ما إن اب
اتجاه البحر حتى تذكرت وجوههم وتأكد لى أنهم لفيف م
القدامى فى المدرسة الثانوية، فاندفعت أركض خلفهم
اللحاق بهم، وفى ذهنى يدور شريط قديم من أحداث حم
يحاول ذهنى ربط الصور بالأسماء.



دار الشروق
www.shorouk.com